القضية

أديب اللجمي

تحت شعار « دور الأديب العربي في معارك التحرر » انعقد مؤتمر الأدباء العرب السادس . وعلى مبدأ « من كل بستان زهرة » أعدت بحوثه وجرت المناقشات فيه ، واستخلصت التوصيات منها . سمات ثلاث برزت في المؤتمر :

— ارتجال الاعداد له

— انتماء المسهمين فيه الى آفاق ومستويات جد متفاوتة

— عمومية اكثر المناقشات التي جرت ، والبحوث التي قدمت .

وكانت النتيجة أن أخذ المؤتمرون بمنطق « المسالمة » والحلول السهلة .

لم يكن منتظراً بالطبع ان يقدّم مؤتمر كهذا حلولاً لقضية فلسطين ، او برنامجاً عملياً لاستعادة الأرض السليبة ، ودحر الغزو الامبريالي وتحويل انتاج الادباء العرب من انتاج محاكاة الى انتاج ابداع . ولم يكن أحد يتوقع منه أن يغيّر من موازين القوى وطبيعة الصراع الجاري فوق الارض العربية ، لصالح هذا الفريق او ذاك . فالمؤتمرات سواء عقدت في الشرق او الغرب هي لقاءات بين أفكار ، واتجاهات ، وهي حوار بين وجهات نظر ، قد تكون متفاوتة بالأصل ، إلا أنها تنتهي ، او يجب ان تنتهي الى **موقف موحّد** من الموضوع المبحوث .

ولكن مؤتمر الأدباء العرب ببغداد انعقد هذه المرة في ظروف خاصة ، ظروف ما بعد العدوان الاسرائيلي على البلاد العربية في الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وكان طبيعياً ، بل حرياً بالأدباء العرب ان ينطلقوا من حقيقة ان الفكر العربي مطالب اليوم ، واكثر مما كان مطالباً بالأمس ، أن يصوغ موقفين معاً :

— موقفاً يتعلق بالواقع العربي الكلي — في مختلف مجالاته الثقافية والسياسية والاجتماعية وسواها — وما ينتظر له أن يكون :— وموقفاً يتعلق بمكان الفكر العربي في الفكر العالمي . لقد تصور بعض الأدباء العرب ان مكافحة الامبريالية ، ومكافحة الوسائل الثقافية التي يستخدمها الاستعمار الجديد للتضليل والتزييف ، يجب ان تستتبع بالضرورة مقاطعة كل ثقافة تأتي من الغرب . ولعل من المفيد ان نذكر هنا بأن في صميم العالم الغربي الامبريالي أدباء ومفكرين لا يفتأون يقدمون للانسانية أروع الانتاج ، وأضخم نماذج الفكر التحرري التقدمي .

أموراً كثيرة بحثها مؤتمر الأدباء العرب . وموضوعات متنوعة ، متكاملة ، تسرب اليها الاستطراد في كثير من الأحيان ، ناقشها الأدباء . ولكن القضية الأساسية : **كيف يصنع الادباء العرب أدباً حديثاً ، يكون تعبيراً حياً عن طموحهم وواقعهم معاً** ، هذه القضية هي التي غابت في متاهات المناقشات الجانبية ، وهي بالضبط ما كان يجب ان يحظى بالاهتمام الاول .

الأدباء العرب

في مؤتمرهم

في الفترة من ١٦ – ٢١ آذار (مارس) ١٩٦٧ ، اجتمع الأدباء العرب في مؤتمرهم السادس ، في القاهرة[١] .

اشتركت في المؤتمر وفود من الاقطار العربية : مصر ـ سورية ـ الأردن ـ السودان ـ العراق ـ فلسطين ـ الكويت ـ لبنان ـ ليبيا ـ المغرب ـ الشارقة ـ عمان .

---

(١) عقدت مؤتمرات الادباء العرب السابقة في البلاد العربية التالية :

ـ المؤتمر الاول : بيت مري (لبنان) ـ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٤ . موضوع المؤتمر . الأدب العربي وازدواجية اللغة ـ حرية التفكير ـ الدولة والأديب .

ـ المؤتمر الثاني : بلودان (سورية) ـ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٦ ـ موضوع المؤتمر : الأدب والنقد ـ الأدب العربي بين الاداب العالمية .

ـ المؤتمر الثالث : القاهرة ـ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٧ ـ موضوع المؤتمر : الأدب والقومية العربية ـ حرية الأديب .

ـ المؤتمر الرابع : الكويت ـ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٨ ـ موضوع المؤتمر : البطولة في الأدب العربي .

ـ المؤتمر الخامس : بغداد ـ شباط (فبراير) ١٩٦٥ ـ موضوع المؤتمر : دور الأديب في معركة التحرر والبناء .

ـ المؤتمر السادس : القاهرة ـ آذار (مارس) ١٩٦٨ ـ موضوع المؤتمر : دور الأديب في معارك التحرر من الاستعمار .

تجاوز المائتين عدد الذين أسهموا فعلياً في بحوث ومناقشات المؤتمر : أدباء وباحثون عرب ، من آفاق متنوعة ، ومذاهب فكرية متباينة ، جاءوا جميعاً ليبحثوا موضوع : **«دور الأديب العربي في معارك التحرر من الاستعمار»**.

لم تكن طريقة مقاربتهم للموضوع واحدة ، ولا معالجتهم له من مستوى مشترك. الا أنه كان ثمة اجماع في الاجتهاد والتفكير على ان الأمة العربية تتصدى منذ عشرين سنة حتى اليوم لهجمة استعمارية من نوع جديد ، معقد ، اكثر ضراوة وهمجية من نماذج الاستعمار القديم كلها ، وأن الغزو الصهيوني المستمر للأرض العربية ، وهو احد مظاهر هذه الهجمة ، يتطلب من الضمير العربي مزيداً من الوعي ، ومن الارادة العربية مزيداً من وضوح الرؤية ، في عالم شائك حافل بالمشكلات والمظالم والتوتر .

كان ثمة اجماع ، أو شبه اجماع على ادراك الموضوع الكلي بهذه الصيغة . الا ان الاختلاف في الرأي والرؤية كان بارزاً في نقطة اساسية ، **هي تحديد الدور الذي يستطيع ان يؤديه** الأديب العربي في تحرر بلاده ؛ وهذه النقطة ترتد بالنتيجة الى مهمة الفكر العربي في قضية التحرر الكبرى . الاختلاف ذاته برز في الندوة التي دعت اليها مجلة المعرفة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة الماضية[1] حين عولج موضوع : «المثقفين العرب أمام قضية فلسطين» . أين يقع الفكر العربي في معركة التحرر العربية ؟ هل تمكن الفكر العربي المعاصر من تبوء مكان له في فكر القرن العشرين ؟

* * *

وُضعت بين أيدي المؤتمرين بحوث كثيرة زاد عددها عن العشرين بحثاً.

(١) راجع العدد ٧١ (كانون الثاني – يناير – ١٩٦٨) من مجلة المعرفة – عدد خاص : المثقفون العرب أمام قضية فلسطين .

واتجه اكثرها الى معالجة موقف الأديب العربي من الامبريالية والاستعمار ، وموقفه من مكافحة الصهيونية ، ودور أدب المقاومة في النضال التحرري .

واتسمت بحوث كثيرة بعمومية المعالجة . إلا أن هناك بعض بحوث كانت في مستوى المعالجة الجدية الرائعة ؛ منها بحث غسان كنفاني (لبنان) ، وعنوانه «أدب المقاومة الفلسطيني – أبعاد ومواقف» (١) .

وقد اراد غسان كنفاني أن يبين أبعاد « الرؤية العميقة » في ادب المقاومة في فلسطين المحتلة . فهو ادب يقاتل ، على حد تعبيره ، « على اكثر من جبهة . **وسيكون من المدهش حقاً أن يرى الدارس في انتاج ادباء الارض المحتلة ، ادراكاً مبكراً ، عبر الشعر والقصة والمسرحية ، لكثير من معطيات الموقف الذي اكتشفه الادباء العرب ، او على وشك ، في مختلف البلاد العربية ، على العموم ،** في أعقاب ٥ حزيران (يونيو) . »وفي تقدير الكاتب ان الادباء العرب في الارض المحتلة قد ادركا المشكلة بوضوح اكثر مما ادركها به فريق كبير من الادباء في مختلف الاقطار العربية الاخرى . « فادب المقاومة قد ربط ربطاً محكماً بين المسألة الاجتماعية والمسألة السياسية ، واعتبرهما طرفين من صيغة لا بدّ من تلاحمها ، لتقوم بمهمة المقاومة . وقد مضى ذلك الأدب الى ابعد من هذا ، حين ادرك في وقت مبكر ايضاً الترابط العضوي بين قضية مقاومة الاحتلال الاسرائيلي وقضايا التحرر في البلاد العربية وفي العالم . وعلى هذه الجبهات جميعها ، بكل تعقيداتها ، خاض ادب المقاومة في فلسطين المحتلة معركة التزاماته » . ويرى غسان كنفاني أن ادباء الارض المحتلة لم يعرفوا « ظاهرة التخلي ، ولا التنصل ، ولا العتاب والعويل ... وهذا وحده يجعل شاعراً مثل محمود درويش ، وحده تقريباً في قارتنا العربية الشاسعة ، يتلقى كارثة الخامس من حزيران (يونيو) بثبات وصمود ، ويجعلها حافزاً » .

---

(١) ستقوم امانة سر اتحاد الأدباء العرب بنشر جميع وقائع المؤتمر السادس للأدباء العرب (البحوث ، المناقشات ، القرارات والتوصيات) في كتاب خاص يصدر قريباً .

ويقدم الاستاذ كنفاني قصيدة محمود درويش التي نظمها في اعقاب العدوان الاسرائيلي في الخامس من حزيران الماضي ، نموذجاً للصمود العربي الحالي من الزيف :

« وطني !
يعلمني حديد سلاسلي
عنف النسور
ورقة المتفائل ..
ما كنتُ أعرف أن تحت جلودنا
ميلاد عاصفة
وعرس جداول !
سدّوا عليّ النور في زنزانة
فتوهجت في القلب
شمسُ مشاعل
كتبوا على الجدران رقم بطاقتي
فنما على الجدران
مرجُ سنابل
وحفرتُ بالاسنان رسمك دامياً
وكتبت أغنية الظلام الراحل
أغمدت في لحم الظلام هزيمتي
وغرزت في شعر الضياء أناملي
والفاتحون على سطوح منازلي
لم يفتحوا الا رعود زلازلي

لن يبصروا الا توهج جبهتي
لن يسمعوا الا صرير سلاسلي
فاذا احترقت على صليب عبادتي
أصبحت قديساً
بزيّ مقاتل ! »

* * *

وفي البحث الذي قدمه الكاتب خيري حماد (فلسطين) ابراز لمهمة التزام الأديب العربي في فضح الصهيونية ومكافحتها . فالأديب المثقف ، كما يراه خيري حماد [1] « انسان ثوري بطبيعة تكوينه ، بل وبطبيعة تسميته . فهو لا يعتبر مثقفاً الا اذا عاش مع مجتمعه ، يحس بآلامه ، ويعكس تطلعاته . ومن هنا فهو ينسجم مع هذا المجتمع اذا كان ثورياً . . . وهو يتمرد عليه ، اذا كان المجتمع تقليدياً متخلفاً . ويتجسد تمرده هذا في الدعوة الى الثورة ، التي لا تعني مجرد الانقلاب ، وانما تعني أول ما تعني تغيير صور الحياة من جذورها ، في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية » .

ويعدد خيري حماد مجموعة من الحقائق « لابدّ للأديب الملتزم من أن يراها ، لاتصالها الوثيق بالوسيلة المؤدية الى هدف التحرير » . ومن هذه الحقائق « ان معركة فلسطين ليست مع الصهيونية وحدها ، بل وايضاً مع الاستعمار الذي خلق اسرائيل . » ومنها « ان الوحدة العربية في مضمونها الثوري التقدمي ، ولا سيما للبلاد المحيطة باسرائيل ، هي الضرورة الحتمية للاسراع في تحقيق التحرير ، بالاضافة الى ضرورتها الحتمية في تحقيق الوجود القومي » . ومنها « أن المقاومة الفلسطينية والمتمثلة في العمل الفدائي كمرحلة أولى ، لابدّ وأن تتحول الى حرب

(١) بحث خيري حماد – رسالة الأديب في مكافحة الصهيونية وثيقة رقم ٨/؛

تحررية شاملة وكاملة في المنطقة المحتلة كلها ، وهي تمثل تبعاً لذلك عاملاً فعالاً ، لا في معركة ازالة آثار العدوان التي يرفع شعارها في هذه الأيام فحسب ، بل وفي معركة تصفية الوجود العدواني الذي تمثله إسرائيل ايضاً . »

ويطالب الكاتب الأدباء العرب أن يعتبروا معركة فلسطين جزءاً لا يتجزأ من معركة الأمة العربية ضدّ اعدائها . « ومن هنا يبرز التزام الأديب العربي بوجوب الربط ربطاً وثيقاً بين تحرير فلسطين ، وبين معركة الأمة العربية ضدّ الاستعمار والاستغلال بجميع صورهما وأشكالهما . »

* * *

وركزت اكثر البحوث التي عالجت رسالة الأديب العربي في مكافحة الأمبريالية والاستعمار الجديد ، على الغزو الثقافي الذي يوقعه الغرب الاستعماري على عقول المثقفين العرب . فالامبريالية والاستعمار الجديد يمارسان سيطرتهما على بلاد العالم الثالث ، عن طريق المؤسسات الثقافية ، والنتاج الثقافي الفني ، وهي في ظاهرها بريئة ، ولكنها تهدف في واقعها الى تحدي الفن العربي ، وازالة النزوع الثوري منه ،وجعل المثقفين يتصورون ان النموذج الثقافي الأمثل هو النموذج الغربي .

ويمارس النشاط الثقافي للاستعمار الجديد مهمته في مجالات مختلفة : التشكيك بقيمة التراث الفكري العربي — اثارة مشكلات زائفة ، كمشكلة « الفن للفن » — التنديد بفكرة الالتزام في الادب — التحريض على نشر اللغات العامية المحلية والكتابة والتأليف بها — التستر وراء ما يسمى بحرية الكاتب لبث سموم الدعاوة للاستسلام الى الغرب .

وفي البحوث التي قدمها الدكتور عبد العزيز الأهواني (الجمهورية العربية المتحدة)[1] ، والاستاذ حسين مروة ، والدكتورة سهير القلماوي ، والدكتور عبد الرزاق محي الدين ، وفريق من الأدباء السوريين ، أمثلة كثيرة على ظاهرات التسلط

---

(١) نشرنا بحث الدكتور الأهواني في مكان آخر من هذا العدد .

الفكري الغربي على المثقفين العرب ، تشهد بارتباط بعض المؤسسات الثقافية بأجهزة المخابرات الامبريالية ، كالمنظمة العالمية لحرية الثقافة ، ومجلة « حوار » التي كانت تصدر في لبنان .

ويرى الدكتور عبد الرزاق محي الدين (العراق) أن الشيء المخيف في الاستعمار الجديد « أنه يواجه الدول النامية بتخطيط استعماري مدروس متكامل ، يعتمد في تنفيذه وفي التهيئة له على عوامل نفسية واجتماعية وفكرية وسياسية . » انه أبعد مايكون عن اللجوء الى العنف المكشوف — إلا في حالات التطرف القصوى حين تتغلب قوى الحرية على جميع خططه ومشاريعه — . فمواجهته الأساسية تبدأ « بدراسة نفسيات الشعوب ، ومواطن القوة والضعف فيها ، وبتحليل تكوينها الاجتماعي ، الى دراسة افراد وهيئات من بين ابنائها ، يصطنعها او يجاريها ، الى تعزيز مفاهيم وأفكار تحدث ضياعاً او بلبلة او فرقة ، الى معرفة حاجاتها ومتطلبات الحياة فيها . »

الاستعمار الجديد تبين له منذ رأس على حد التعبير الذي أورده الاستاذ حسنين مروة في بحثه . ويستشهد الدكتور عبد الرزاق محي الدين بكلمة الزعيم المرحوم نهرو : « الشكل الأمثل للاستعمار الجديد هو هذه الامبريالية الاقتصادية التي لاتشير اليها الخرائط ، ولكنها هي التي تضع الثروات القومية لبلد مستقل تحت رحمة النهم الذي لايعرف شبعاً للدول الجشعة ، وأصحاب البنوك ورجال الأعمال فيها . » والاستعمار الجديد يواجه الأمة العربية بأشكال متنوعة ، فهو :

« يحرص بالدرجة الأولى على السيطرة على موارد البترول الغنية .

« ويحرص على خلق مشاكل بين اقطارنا او في داخل كل قطر !

« ويقاوم أشد المقاومة أن تنتقل ثورتنا الاستقلالية الى ثورة اجتماعية اشتراكية .

« ويقف في وجـه أي ثورة تحررية ضد الأنظمة التي يريد سيادتها على المنطقة .

« وفي ناحية الفكر ، يشير البلبلة والضياع والانقسام في الأفكار : في الأدب ، في الفن ، في الاجتماع ، في الوحـدة والطريق اليها ، في الاشتراكية العربية ومدى سلامتها والتقائها مع الاسلام او خروجها عليه . »

ويرى الدكتور عبد الرزاق محي الدين أن احباط مؤامرات الاستعمار الجديد على الوطن العربي يجب ان ينطلق من :

« – التأكيد على أن الأمة العربية أمة واحدة ذات مصلحة واحدة .

– التأكيد على أن الوحـدة العربية بأية صورة مقبولة من الجميع وتصلح أن تكون بداية ضرورية .

– أن يصار الى توحيد القوى الثورية ولقائها لقاء جدياً لا لقاء شعارات وتصريحات . »

وتعتقد الدكتورة سهير القلماوي (الجمهورية العربية المتحدة) في بحثها (دور الأديب العربي في مكافحة الامبريالية) أن الأدباء العرب لم يقصّروا في كتبهم ورواياتهم وشعرهم عن فضح الامبريالية و كشف أقنعتها ؛ وقد أبرزوا في الوقت ذاته كفاح الشعب العربي ونضـاله في سبيل الحرية . ومع ذلك : فإن « الأمـة العربية التي فتنها الاستعمار القديم والجديد ، والتي تتدخل الامبريالية بهدف مزيد من تفتيتها في أيامنا هـذه ، تحتاج الى دراسات ودراسات بأقلام المفكرين .

ما هي امكانيات الوطن العربي وطاقاته التي يجب أن توجه نحو هدف أسمى ، هو التكامل العربي للوقوف أمام تيارات الاستعمار والامبريالية العنيفة الجارفـة . »

« ولكنْ ، هل دور الأديب العربي هو أن يكتب في سبيل محـاربة الامبريالية شعراً ونثراً ودراسات فحسب ؟ ان دوره في بناء الانسان العربي قد يكون أهمّ وأسبق من هذا الدور في نظرتنا للوهلة الأولى . ولكن هل يمكن أن نبني الانسان العربي الجديد ، من دون أن نؤمن له المناخ الصحي الذي يمكن أن يتنفس فيه ؟ ان المناخ الصحي أن يجد العربي الاهتمام من حوله به وبمستقبله محققاً في مجالات مختلفة ، ومحاولة انعتاق كل الطاقات حرة طليقة لتمارس وجوده في جو حر لا مضغوط ولا مسموم ، ومحاولة معها في أن تجد هذه الحرية الأرض الطيبة الممهدة لتزرع فيها شجرة أصلها في الأرض وفرعها في السماء . »

وتعتقد الدكتورة سهير أن من واجب الفنان العربي أن يصفّي فنه مما قد يكون أصابه من انحراف أو ضياع . « ان تأصيل الفن العربي مهمة ملحة اليوم بعد ما خاض فننا عملية تطعيم جبارة بفنون وافدة ، وما يزال معرضاً لعمليات تطعيم جبارة من الشرق ومن الغرب » .

« وإذن فالأديب العربي بحكم عروبته وايمانه هو مجاهد في سبيل الحق بالعمل والقلم ، ولا يحتاج الى أكثر من ايجاد المناخ الصحي من حوله عن طريق ما يسود المجتمع من فكر وأحاسيس لينطلق جندياً محارباً كل أنواع الاستعمار » .

* * *

ولعل المناقشات التي دارت في لجان المؤتمر [1] ، كانت دليـلاً كاشفاً

---

(١) توزع المؤتمرون على أربع لجان :

١ – اللجنة الأولى : دور الأديب العربي في مكافحة الامبرياليـة والاستعمار الجديد – رئيس اللجنة : اديب اللجمي (الجمهورية العربية السورية)

٢ – اللجنة الثانية : دور الأديب العربي في مكافحة الصهيونية – رئيس اللجنة : خيري حماد (فلسطين) .

٣ – اللجنة الثالثة : أدب المقاومة العربي – رئيس اللجنة : الدكتور علي الزبيدي (العراق) .

٤ – اللجنة الرابعة : الفنية التنظيمية – رئيس اللجنة : الدكتورة سهير القلماوي (الجمهورية العربية المتحدة) .

لفوارق « الرؤية » لدى المؤتمرين . كانت ثمة مستويات مختلفة في ادراك الواقع العربي من ناحية ، وادراك دور الأديب العربي في العمل على خلق « المجتمع العربي الجديد » من ناحية أخرى . وبالرغم من هذا التفاوت فقد طوق المؤتمر في مناقشاته بعض الظاهرات التي يرزح تحتها الواقع الأدبي والفكري العربي ؛ وكان على المؤتمر ان يكون صريحاً في الربط بين التحرر الفكري من جهة والتحرر السياسي والاجتماعي من جهة أخرى ، كما كان صريحاً في مطالبته رجال القلم في الوطن العربي ان يترفعوا عن الابتذال في معالجة القضايا التي تمس مصير الأمة العربية ، وان يتخلصوا من الكتابة الرخيصة ، وان تكون النماذج التي يبدعونها جديرة بالاقتداء .

وانصبت اكثر مقررات المؤتمر وتوصياته على التنديد بالامبريالية والاستعمار الجديد ، ومطالبة الأمة العربية بالعمل ، في نطاق وحدوي تقدمي ، على تحرير الوطن العربي كليا منهما ومن الصهيونية . وطالب الأدباء أنفسهم بوجوب الاكثار من اتصالهم بأدباء العالم الثالث ، ونقل آثارهم الى اللغة العربية وتنسيق النضال الفكري معهم . فالواقع ان المثقفين العرب لايعرفون من من آثار ادباء العالم الثالث الا القليل . كان نفس المقررات نفساً تحررياً[1] ، مما دعا بعض الأدباء المؤتمرين الى اتهام المؤتمر بالاهتمام في « أمور سياسية ليست من اختصاصه » . وقد فات هؤلاء المعترضين والمتحفظين أن مهمة الأديب العربي هي أولاً فضح الزيف والظلم أينما وكيفما كانا .

---

(١) نشرنا النص الكامل لمقررات المؤتمر في مكان آخر من هذا العدد .

من بحوث المؤتمر

المثقف العربي
والاستعمار الجديد

د. عبد العزيز الأهواني
ـ القاهرة

يشترك الاستعماران القديم والجديد من ناحية الغاية والهدف في ظاهرة واحدة ذات جانبين: الجانب الاول هو الاستغلال الاقتصادي بمعناه الشامل أي المواد الخام والقوى البشرية والأسواق التجارية، والجانب الثاني هو السيطرة الثقافية بمعناها الشامل أيضاً، اي الدين واللغة والعادات والسلوك والعلاقات الاجتماعية. والجانبان مع ذلك وجهان لشيء واحد هو الاستغلال المادي والمعنوي .

وانما الخلاف بين الاستعمارين في الاساليب التي يتبعها كلاهما لتحقيق هذه الغاية المشتركة . ولما كان اختلاف الاساليب هو نتيجة لتغير الاوضاع التاريخية والظروف العالمية، وثمرة للتجارب التي عاناها الاستعمار القديم منذ بدأت حركته في الاتساع ، كان لا بد لكي نفهم الاستعمار الجديد ونعرف دوره في الحياة الثقافية للأمة العربية وواجب المثقفين العرب ازاءه ، أن نعرض في ايجاز للقضايا التاريخية الكبرى التي حولت الاستعمار القديم الى جديد .

لقد ارتبط الاستعمار القديم بظهور الطبقة الوسطى في اوربا الغربية ، وباستخدام الآلة البخارية وقيام الصناعة الآلية مكان الصناعة اليدوية . ومعنى هذا ان قدرة الانتاج زادت ، ورؤوس الاموال المستخدمة فيه تضخمت ، وأصبح تحقيق ارباح متزايدة يستلزم الحصول على المادة الخام التي تسمح للآلة بفرصة العمل المتصل ، و كذلك الحصول على أسواق جديدة لتوزيع هذه المنتجات الصناعية .

وهذا العامل الاقتصادي الذي ظهر في العصور الحديثة هو الذي يفرق

بين ما نسميه بالاستعمار القديم وبين الفتوحات العسكرية والسياسة السابقة التي مثلتها الامبراطورية الرومانية . فهذه فتوحات لها أغراض اخرى، ولها منطلقات مختلفة ، وان كان للعامل الاقتصادي دور فيها . صحيح ان الدولة الرومانية قد انتفعت بحقول القمح التي كانت تزرع في سورية ومصر حتى استطاعت في فترة من تاريخها أن تقدم الخبز مجاناً لابناء روما ، ولكن مراكز الصناعة اليدوية كانت مبثثة في اجزاء تلك الامبراطورية بحيث لم تتح الفرص لظهور طبقة رأسمالية بالمعنى الحديث . وكانت طبقة التجار لضعف وسائل المواصلات ولأن الانتاج الزراعي لا يقبل التخزين الطويل ، قليلة النفوذ لا تستطيع أن تحرك اجهزة الدولة حسب مشيئتها ، ولما كان المجد العسكري ورغبة الاباطرة في أن يبدوا

حدود ممالكهم اقوى تأثيراً وأبعد نفوذاً في سير الاحداث الحربية والسياسية .

وهذه نقطة خلاف بين الامبراطوريات القديمة والامبريالية الحديثة ، حيث تقع الدولة تحت نفوذ الرأسماليين بل وتكاد أن تصبح ممثلة لهم تتحرك بأمرهم وتسخر اجهزتها وجيوشها لصالحهم .

على أننا اذا تحدثنا عن العامل الاقتصادي وجعلناه حجر الزاوية في حركة الاستعمار الأوربي ، فلا ينبغي أن نهمل عوامل اخرى غير اقتصادية كانت تحرك الامبرياليات الحديثة ، خاصة حين يتصل الامر بالوطن العربي أو بدار الاسلام . فاذا كان النشاط الاستعماري للبرتغاليين والاسبانيين في اوائل القرن السادس عشر قد اتجه نحو اكتشاف امريكا ثم الهجرة اليها واستغلال مواردها ، فان هذا الاستعمار البرتغالي والاسباني قد اتجه أيضاً وفي الوقت نفسه الى الشمال الافريقي ، اي الى المغرب الكبير ، امتداداً لحركة الحروب الصليبية واستجابة لمشاعر الصراع الديني الذي شغل الناس على جانبي البحر الابيض خلال القرون الوسطى . وكذلك كان استبداد الحاكمين وشهوة التسلط لديهم ، وهو كذلك اثر ممتد من القرون الوسطى ، له دوره في الخطوات الاولى للاستعمار الاوربي . وان قيام الامبراطورية العثمانية وتوسعها الحربي شرقاً وجنوباً وصراعها مع الأوربيين غرباً يحمل في طياته هذه المعاني كلها ، الديني منها والعسكري والاقتصادي . وذلك كله يقع على أعتاب العصر الحديث ، وقد انتقلت خلاله مراكز القوة من المشرق الى المغرب الاوربي .

وأمر آخر يلقي ضوءاً على الاستعمار الاوربي ويفرق بينه وبين الامبراطوريات القديمة ويفسر اتجاهه واساليبه هو أن ما ذكرناه من استخدام الآلة لم يكن ظاهرة منعزلة في الحياة الاوربية ، وانما كان ثمرة تقدم علمي وثقافي شمل كثيراً من ميادين الحياة ولم يقف عند الجانب الاقتصادي والتطبيقي وحدهما ، مما أعطى

للرجل الاوربي ثقة بنفسه وواقعية في تفكيره ونهجا علمياً في معالجة اموره حياته . فأضعف ذلك من سلطان الخرافة على العقول، ودفع بالحياة الى مزيد من الجدية والشعور بالمسؤولية والمقدرة على التحكم في واقع الحياة العملية والفكرية .

ولو أن الشرق الاسلامي او الوطن العربي استطاع ان يستفيد من هذه الكشوف العلمية ومن هذا التقدم المنهجي أولاً بأول منذ ظهوره في الغرب الاوربي لما وجد الاستعمار الاوربي منفذا الى هذه المناطق ، ولاتخذ الصراع وجها آخر فلم يصبح الامر امر مستعمِرين ومستعمَرين . ولكن التخلف العلمي والمحافظة على النمط الفكري والعملي القديم في هذه المناطق أتاح الفرصة للسيطرة الاوربية والاستعمار الاوربي . ومعنى ذلك ان استخدام الآلة والتقدم الاوروبي لايفسر الاتجاه الاستعماري الا على ضوء التخلف الذي ظل قائماً من وراء هذا العالم الاوربي والذي أغرى الغرب وشجعه ومكنه من الاستعلاء في الأرض وأوجد عنده عقدة التفوق كما أوجد بيننا عقدة التخلف .

* * *

اتخذ الاستعمار القديم اسلوب الغزو العسكري في المناطق التي دخلها من العالم الافريقي الآسيوي . وقد حقق هذا الغزو اغراضه العسكرية على الرغم من المقاومة الشديدة التي صادفها في كثير من المناطق ، ومنها المغرب العربي ، بسبب التفوق في عدة القتال وأدواته ، من بنادق يحملها الجنود ومدافع تحملها السفن . وأصبحت قلة اوربية تسيطر على شعوب كثيرة العدد واسعة الحدود . ولكن الغزاة الاوربيين كانوا يعلمون أن القوة العسكرية وحدها لاتستطيع الثبات طويلاً في تلك المناطق البعيدة عن أوطانها ، وامام تلك الأمواج الهائلة من الجماهير الآسيوية الافريقية . فبدأوا يستخدمون اسلحة مساعدة تعينهم على هذا البقاء .

واتيح لهم عن طريق علمائهم ومؤرخيهم أن يتعرفوا على مواطن الضعف والقوة، وعلى الخلافات الدينية والطائفية، وعلى تجمعات القبائل والأجناس التي تتألف منها الامم المغلوبة. فأخذت حركة التبشير الديني تتسع وتمد بما تحتاج اليه من وسائل واموال، وانشئت المعاهد التي تدرس اللغات المحلية واللهجات العامية والمعتقدات الشعبية. ثم شرع الغزاة في تأليف بعض الطوائف والتقريب بينها وبين الطوائف الأخرى. وفتح الباب في البلاد المغلوبة لهجرات اوروبية تقيم في مدن او احياء او فيما يسمى (بالمستعمرات). وأجلي بالقوة بعض المواطنين عن بقاعهم ليحل اولئك المستوطنون الاجانب مكانهم.. وتمكن الاوربيون بخبرائهم وعلمهم من اكتشاف المناجم وآبار البترول والمواد الخام التي تشتمل عليها البلاد وقاموا باستغلالها ونقل مافيها، واستخدموا عن طريق الاجر الزهيد أو السخرة ابناء البلاد في هذا الاستغلال، وبذلك اوجدوا فئات ترتزق بالعمل معهم، وفتحوا الاسواق لسلعهم وتجاراتهم، وجعلوا من فئات الأعيان والموظفين في البلاد المفتوحة مستهلكين لهذه السلع، وبذلك ضربوا الصناعات المحلية، وهي في الاصل صناعات يدوية لم تكن قادرة على المنافسة لو جاءت حتى بالطريق السلمي. وطال امد الاحتلال العسكري، وتمكن من اخماد الثورات المحلية بقوة السلاح، حتى خيل الناس في فترة من الزمن انه احتلال ابدي، لاطاقة للشعوب العزلاء بدفعه. واختلطت كراهية المستعمر بنزوع الى التشبه به ومحاكاته على حسب ماذكره ابن خلدون من ولع المغلوب بتقليد الغالب. وحدث مايشبه الانبهار بالمظاهر الحضارية التي حملها الغزاة. وتزعزعت ثقة كثير من المواطنين بمثلهم وحضارتهم وشكوا في اصالتهم. ومع ذلك فقد ظل هؤلاء المستعمرون يحملون السلاح ويقيمون القلاع ويستخدمون العنف ويسفكون الدماء ويزجون بالناس الى السجون، ويتكلفون في سبيل ذلك اموالاً ونفقات ليحافظوا على وجودهم

وثرواتهم التي انتزعوها ومستعمراتهم التي اقاموها . وظلت القوة العسكرية تحمي الغزو الفكري والنفسي والاجتماعي خلال فترة الاستعمار القديم كله .

هذه الصورة المجملة للاستعمار القديم عرفها الوطن العربي بكل تفاصيلها واستخدمت على أرض العرب كل اساليبها وأخذت كل اشكالها منذ الغزوات البرتغالية لموانىء المغرب المطلة على المحيط الاطلسي ولمناطق من الجنوب العربي الى الغزوات الاسبانية لموانىء المغرب الكبير على البحر الابيض في القرنين السادس عشر والسابع عشر، الى الحملة الفرنسية على مصر والغزو الفرنسي للجزائر وتونس ومراكش، الى الاحتلال الانكليزي لمصر والسودان والشرق العربي، والاحتلال الايطالي لليبيا . شهد المواطن العربي اغتصاب الأرض وانتهاب الثروات المعدنية واقامة المستعمرات للمستوطنين الاجانب ، كما شهد المعاهد العلمية ومراكز البحوث التي قامت لخدمة الاستعمار في عواصمه . ورأى ارساليات التبشير وحماية المنحرفين من اصحاب المعتقدات الدينية واحتضان طوائف واثارة أقليات وفرض نظم من التعليم ومحاربة اللغة العربية واصطناع المنتفعين والخونة ، وكل مايحمله الاستعمار القديم من عداء للشعوب ويضمره من كراهية لتقدمها وما يحاوله من مسخ تراثها ، ومايسلكه من اغراء وتخويف .

ومع ذلك فان الموقف بالنسبة للوطن العربي من الاستعمار القديم اختلف عن الموقف في مناطق اخرى من العالم الآسيوي الافريقي . وأوضح مظاهر هذا الاختلاف تتجلى في امرين : الأمر الأول ان هذا الاستعمار الأوروبي بدأ متأخراً في الوطن العربي بالقياس الى تاريخه في الهند واندونيسيا . فالاستعمار الحقيقي يبدأ باحتلال الجزائر في سنة ١٨٣٠ على حين ان الغزو الاستعماري لمناطق الشرق الأقصى بدأ قبل ذلك بنحو قرنين . وتفسيرهذا التأخر الزمني لغزو الوطن

العربي يرجع لقرب هذا الوطن من أرض المستعمرين في اوربا وتنافس الدول الأوربية وخشيتها ان تنفرد احداها بهذا الغزو فيختل توازن القوى في حوض البحر الابيض . وهذا هو الذي جعل الدولة العثمانية يطول مرضها وتبقى مستقلة ، وان كانت عاجزة، أمداً غير قصير .

والأمر الثاني هو أن الغزو الاستعماري صادف أرضاً يرث أهلها حضارتهم القديمة ويتملكون لغة غنية ويعتزون بتراث كان له دور في تاريخ البشرية ، خلافاً لما صادفه هذا الغزو الاستعماري في سائر مناطق القارة الافريقية .

وأمر ثالث هو أن هذا الغزو الاوربي ـ بعد الفترة القصيرة للحملة الفرنسية ـ جاء الى بلاد كانت قد بدأت تستفيد ، وان تكن استفادة محدودة ، بالتقدم العلمي الذي عرفته اوربا منذ عصر النهضة . فالعلاقة بين الجمهوريات الايطالية وبين الموانىء العربية منذ عصر النهضة كانت قائمة ، مما جعل بعض اقطار الوطن العربي تعرف من صناعة السفن وأمور التجارة مالم تعرفه اجزاء العالم الآسيوي الافريقي: وهذه النقطة لاتزال في حاجة الى دراسة ، ولاتزال تتطلب مزيداً من الوضوح . ولكن الثابت أن موانىء سورية ومصر كانت في عصر النهضة كما كانت قديماً منافذ لحركة تجارية واسعة بين الشرق الاقصى وأوربا . وكذلك اخذت بعض اقطار الوطن العربي وخاصة مصر قبل الغزو الاستعماري بكثير من أسباب المدنية الأوربية في القرن التاسع عشر ، واكتشف بعض المفكرين فيها الجانب النفسي من الحضارة الاوربية .

وهذه الامور الثلاثة : تأخر الاستعمار ، وامتلاك العرب لتراث غني ، والاتصال السابق بأوربا ، ضمنت للوطن العربي وللمواطنين العرب نوعاً من الحصانة والقدرة على المقاومة الثقافية لم تتح لمناطق اخرى كثيرة . ولايزال

الوطن العربي يمتلك قدرات ثقافية ومعنوية تجعله قادراً على المواجهة الحضارية وعلى ابراز طابع اصيل على المستوى العالمي .

ولهذا كله صادف الاستعمار القديم في ارض العرب كفاحاً دائباً مستمراً، تجلى في ثورات مسلحة عنيدة ابتدأت بالامير عبد القادر الجزائري، وتوالت واحدة بعد أخرى، لا تخمد في قطر الا اندلعت في قطر آخر، ثم بثورات شعبية اجتاحت المدن العربية واحدة بعد واحدة ، ثم بتنظيمات سياسية وحركات ثقافية تؤكد عروبة الوطن وتدافع عن عقيدة اهله وتقاوم المسخ الثقافي والطمس الحضاري الذي بذل في سبيله الاستعمار كل غال ورخيص .

وينتهي الاستعمار القديم ليجيء الاستعمار الجديد .

ان التفرقة بين الاستعمار القديم وبين ما يسمى بالاستعمار الجديد امر يمكن ان يكون سهلا جداً وواضحا جداً اذا قلنا ان الاستعمار الجديد قد تخلى عن الاحتلال العسكري واخلى جيوشه عن الأوطان التي كان يعسكر فيها لحماية نفسه واخضاع المواطنين . وبذلك استقلت المستعمرات القديمة وصارت دولاً ذات سيادة تمثل في الهيئات الدولية وتقيم لها سفارات وقنصليات في ممالك الأرض المختلفة . ومع ذلك فان التفرقة تصبح غامضة معقدة حين تتجاوز هذا المظهر الخارجي لجيش محتل الى الغاية او الهدف الذي من اجله احتل هذا الجيش الأجنبي وطناً غير وطنه ، أي هدف الاستغلال المادي والمعنوي . فهل زال هذا الاستغلال بزوال الاحتلال ؟ ان الشواهد كلها تثبت ان هذا الاستغلال لايزال قائماً ، ومن هنا جاز ان يسمى هذا الاستغلال بنفس اللفظ الأول وهو الاستعمار تضاف اليه صفة (الجديد) .

ولكن قبل ان نتحدث عن مظاهر هذا الاستغلال وعن اساليب الاستعمار

الجديد ينبغي ان نذكر الأسباب التي بمقتضاها حدث الجلاء العسكري . ان هنالك اسباباً تساق في هذه السبيل لا يختلف احد من الناس في وجودها، ولكنهم يختلفون في اولوياتها. ومع ذلك فاننا نستطيع ان نجمل هذه الاسباب في قضيتين: **الصراع العالمي ، والوعي الجماهيري .**

أما فيما يتصل بالصراع العالمي ، فان التنافس على الاستعمار بصورته القديمة قد جر على اوربا وعلى العالم حربين عالميتين هما حرب سنة ١٩١٤ ثم حرب سنه ١٩٣٩ . وفي الحق ان الغرب الأوربي حين انطلق في طريق الاستعمار لم ينسق خططه ، وما كان له ان ينسقها ، والأمر امر استغلال وبطش وجشع مادي . ولذلك باءت محاولات التنسيق بالفشل، وعاش الغرب الأوربي تحت تهديد الحرب قبل الحربين المذكورتين بزمن طويل وخلالهما ؛ وكان لدخول الولايات المتحدة غمار الحربين يستلزم اصطناع صيغة جديدة للاستعمار . ثم كان ظهور الاتحاد السوفيتي بمذهبه السياسي ، بعد الحرب الثانية ، وامتداد هذا المذهب الى آسيا ، نقطة تحول خطير في ميزان القوى وفي تغير خريطة العالم السياسية ، وفي الفزع الذي اصاب المستعمرين الغربيين ومعهم امريكا ، بل في احتمال حرب تدمر مالم تستطع تدميره الحروب السابقة . فكان لابد من اتخاذ اساليب جديدة وخطط مختلفة يستتر وراءها الاستعمار القديم ويحتمي من الخطر المتوقع . فاضطر الى ان يظهر عدوله عن القهر والعنف ، وكان مظهرهما الاحتلال العسكري واخماد الحركات الشعبية بقوة السلاح ، فسحب جيوشه وأخلى مواقعه العسكرية .

أما القضية الثانية وهي قضية الوعي الجماهيري ممثلة في الحركات القومية في آسيا وافريقية فقد انفسح لها المجال ، وشهدت المستعمرات كلها يقظة فكرية وسياسية ازدادت مع الأيام ، لما تحمله الحضارة الحديثة ذاتها من وسائل الأعلام

وسرعة المواصلات ، ولما تسرب الى المستعمرات من افكار جديدة نتيجة لهذا الاتصال ، ومن وعي عالمي بمشاكل الاقتصاد والسياسة ، وأساليب المقاومة وحقوق الشعوب . ووجـــد المستعمرون انفسهم مضطرين الى عوامل التهدئة والتسكين فشرعوا في ابرام المعاهدات والتنازل عن بعض مظهريات الحكم . وعرفوا ان الاحتفاظ بالجيوش المحتلة وبالردع المسلح يكلفهم ثمناً باهظاً ويفتح المجال لتطور هذه الحركات الشعبية نحو المعسكر الاشتراكي المناوىء ، وبذلك تحدث بالنسبة لهم الطامة الكبرى وتصبح أوطانهم نفسها في مهب الرياح .

وواضح ان هذا الانتقال من الاحتلال العسكري الى معاهدات الاستغلال ظهر بين الحربين العالميتين . ومع ذلك فان لفظ الاستعمار الجديد لم يظهر في تلك الفترة بل ان هذه التسمية لم تعرف حتى بعد جلاء جيوش الاحتلال ، ولم تفطن شعوب العالم الثالث الى فكرة الاستعمار الجديد إلا منذ سنوات قليلة .

ذلك لأن هذه الشعوب توهمت ان الجلاء العسكري قد فتح امامها باب الحرية والتقدم على مصراعيه ، وغطت الفرحة بالاستقلال السياسي على كل شيء ، وتوهم الناس ان صفحة جديدة في تاريخ البشرية قد فتحت ، واصبح أعداء الأمس لفترة أصدقاء اليوم . فلما اكتشفت تلك الشعوب بعد ذلك ان مطالب النمو الاقتصادي ستكون حتماً على حساب الرخاء الذي تنعم به أعداء الأمس والذي ظلوا ينعمون به وهم أصدقاء اليوم ، أحسوا أنهم فعلاً أخطأوا التصور ، واثبتت الوقائع ذلك .

وأهم من هذا في اكتشاف الشعوب لهذا الاستعمار الجديد هو الموقع الذي احتلته الولايات المتحدة الامريكية في عالم اليوم ، وفي الزعامة التي ظفرت بها على الغرب الأوربي ، وفي محاولة سيطرتها على العالم كله ممثلة للرأسمالية العالمية ،

حتى لقد أصبح مدلول الاستعمار الجديد ينصب أولاً وبالذات على الولايات المتحدة.

ان العزلة التي عرفها عالم المستعمرات عن امريكا قبل الحرب العالمية الأولى جعلته لا يعد الولايات المتحدة دولة استعمارية وان كانت لها مستعمرات. وحتى بعد اذ شاركت امريكا في الحرب العالمية الأولى ضد المانيا، ظل عالم المستعمرات يحسن بها الظن، واستمر حسن الظن قائماً الى حد ما اثناء الحرب العالمية الثانية. ولكن الوجه البغيض لامريكا وضح امام العالم الثالث بعد الحرب الثانية بفترة، حين ازداد نشاطها الاقتصادي واتسعت سيطرتها الرأسمالية وأخذت تعمل سافرة لحسابها في كل مكان في الأرض، متسترة وراء محاربة الشيوعية تارة، ووراء دعوى معاونة الشعوب المتخلفة ومساعدتها تارة أخرى.

وقد اصبحت اساليب امريكا في استغلال الشعوب وفي الاحتكارات العالمية وفي محاربة الثورات التقدمية وفي تأييد الصهيونية العالمية أوضح من أن تخفى وأكثر من أن تحصى. ولذلك لم يعد حائل يحول بينها وبين استخدام اساليب الاستعمار القديم نفسه في بعض مناطق العالم، كما حدث ويحدث في كوريا وفيتنام. ولا شك ان الوطن العربي قد حمل من العدوان الامريكي أفدح الأعباء ممثلاً في تدعيم الاغتصاب الصهيوني لأعز بقعة في الوطن العربي، وحمايته وتزويده بالقوة والدعم المالي ليضيف الى عدوان سنة ٤٨ عدواناً آخر في سنة ٦٧. وليس من شك في ان موارد امريكا الضخمة وتعدادها السكاني قد أتاح لها ان تنهض في مجال الاستعمار بما لا تستطيع اوربا الغربية ان تنهض به. بل ان أوربا الغربية صاحبة الاستعمار القديم أصبحت تابعة لهذا الاستعمار الجديد وأداة من أدواته. وامريكا هي صاحبة الفكرة في تحويل الاستعمار القديم الى استعمار جديد تشترك معها فيه من تجد فيها حماية لوجودها كدولة رأسمالية.

ولكننا في حديثنا عن الاستعمار الجديد حين يتصل الأمر بالثقافة وواجب المثقفين العرب لن نفرق بين الغرب الاوروبي وبين امريكا .

لقد اشرنا من قبل الى التحول الذي حدث اثناء الاستعمار القديم من الانتقال الى الاحتلال العسكري المباشر أو السافر الى احتلال مقنّع في صورة معاهدات استقلال الى أن جاء الاستعمار الجديد . والأمر ايضاً في مجال الثقافة يشبه الأمر في مجال السياسة . فقد بدأ الاستعمار القديم يباشر ضغطه الثقافي سافراً اول الأمر ثم أخذ يخفف من غلوائه ويسلك طرقاً غير مباشرة وغير سافرة ليفرض سيطرته الثقافية .

فرض أول الأمر لغته على البلاد المغلوبة فرضاً ، وجعلها لغة التدريس في مراحل التعليم كلها ، وجعل اللغة القومية لغة ثانوية . فعل ذلك في مصر ، ثم فعله بصورة ابشع في المغرب العربي . وعمل على ان تكون المدارس معامل لتخريج الموظفين وكتبة الدواوين . وحارب بشراسة الثقافة القومية ، وأقام العقبات في سبيل انشاء الجامعات الحرة التي يتربى فيها جيل جديد حديث من المواطنين . وحاول عن طريق التبشير ان يخرج المواطنين عن عقيدتهم الدينية الى عقيدة المحتلين ، وبذل في ذلك كثيراً ، ثم حاول محاربة المجددين واحتضان أصحاب التخلف الثقافي من الطرقيين وأشباههم .. فلما استعصى عليه ذلك أخذ يغير من خططه ، ويختار من المواطنين من يتكلمون ثقافياً نيابة عنه بلسان قومي . وجهود دنلوب و كرومر في مصر تقابلها جهود نظرائها في كل قطر عربي . ومضى الاستعمار الجديد في هذا الاسلوب المتطور للاستعمار القديم . وصارت المؤتمرات العلمية والمنح الدراسية واستضافة المحاضرين وتبادل الأساتذة وتصدير الافلام السينمائية وطبع الكتب والاتفاق

على ترجمة الفكر الأمريكي والغربي وتوزيع المجلات واصدارها بالعربية ، واهداء المطبوعات والتسلل الى الجمعيات والأندية الثقافية ،أصبح كل ذلك أسلوباً جديداً يأخذ به الاستعمار الجديد ويستفيد منه . وعدل عن الدعاية الثقافية المباشرة وقدم صور الحياة في بلاده يعرضها على شعوب العالم الثالث لتكون مثلاً علياً ونماذج للحياة السعيدة والبيت السعيد والسلوك المثالي والعلاقات المنشودة . وغاية هذا كله أن تصبح شعوب العالم الثالث ، وهمها المقيم المقعد أن يقلد أصحابها - دون وعي أو فهم - السادة الجدد ، وأن يطربوا لما يطربون له ويفكروا على غطهم ، ويعيشوا على أساليبهم وان كانوا لا يملكون القدرة المادية التي يملكها أولئك . ولكن يكفي في هذا السبيل أن تمتلك بعض الطبقات ،وان قلّ عدد أفرادها ، هذه القدرة المادية لتصبح نماذج في أرض الاستعمار الجديد تعلم الجماهير الغفيرة بأنها سوف تصل الى مستواها في يوم من الأيام ، دون نظر الى امكان ذلك أو عدم امكانه . وبذلك يزداد المجتمع اختلالاً ، وتزداد الهوة بين الطبقات اتساعاً وينقطع ما بين التراث والحاضر ، وتضيع الاصالة ويصبح التقليد الرخيص والمحاكاة المظهرية شعاراً وهدفاً . ويربط العالم الثالث بالاستعمار الجديد ويصبح تابعاً هزيلاً يدور في فلكه . وبذلك يصبح النداء بالأصالة أو الدعوة الى الاشتراكية وعدالة اجتماعية ومحاولة اذابة الفوارق بين الطبقات عملاً عدائياً للاستعمار الجديد وحركات هدامة وبؤساً وحرماناً وتضليلاً للشعوب عن المثل الأعلى الذي يعرضه الاستعمار الجديد بكل وسيلة ويدعو اليه ليل نهار .

وهذه الصورة المجملة لأساليب الاستعمار الجديد ومفاهيمه يتعرض المواطنون العرب كما يتعرض غيرهم لوطأتها ويجدون تفاصيلها في الحياة الثقافية في أقطارهم .

وهنا يجيء دور المثقفين العرب في مقاومة هذا الاستعمار الجديد . وما يطلب منهم من مراجعة الموقف الثقافي كله مراجعة مستمرة تهدف الى أن تجعل من الثقافة العربية على اختلاف الميادين ثقافة أصيلة تقتبس ماتشاء وتدع ماتشاء عن وعي وبصيرة ، ولا تنزلق الى التقليد الأعمى والمحاكاة الزائفة التي تمسخ الشخصية الثقافية ولا تقدم للعالم الا أصداء خافتة وصوراً باهتة لانتاج الغير . لقد اتصلت الثقافة العربية من قبل بثقافات أجنبية واقتبست عنها واستفادت منها في عصور الازدهار من يونانية وفارسية وهندية واحتفظت مع ذلك بطابع متميز وأفق رحب وانتاج مبتكر وجهد مثمر خصب . وتستطيع الثقافة العربية اليوم أن تواصل السير على هدى ذلك ، وأن تقدم لأصحابها وللانسانية كلها انتاجاً له أصالته مضموناً وشكلاً .

وأحسب أن المثقفين العرب لكي يستطيعوا ذلك ينبغي أن يضعوا نصب أعينهم مبادىء أو نقاطاً أجمل بعضها فيما يلي :

أولاً – على المثقف العربي أن يعرف تاريخ أمته الحضاري معرفة كاملة أو قريبة من الكمال . ولفظ الحضارة هنا يشمل جوانب النشاط الفكري والفني المختلفة ويضم أيضاً التراث الشعبي بكل مظاهره . وموقفنا من التراث يثير كثيراً من القضايا المعقدة ، وربما يوحي في أذهان بعض الناس شيئاً من الريبة والشك افتراضاً من أن الاستغراق في التراث يصد المستغرقين فيه عن قبول التطور ويحول بينهم وبين المرونة والتجديد . وقد يحدث هذا أحياناً ولكن الدراسة العلمية الصحيحة هي التي تضع كل شيء في موضعه التاريخي ، وتملك المقدرة على أن لاتخلط بين الماضي والحاضر لأنها تدرس التطور وتعلل له وتراجع الأحكام دائماً . وفي هذا مايعصم الدراسة العلمية من أن تنتهي الى تقليد أو تعصب . ان

هذا التراث جزء من كيان الأمة العربية اليوم ، بما في ذلك التراث الحضاري الذي عاش على أرض الوطن العربي قبل انتشار الاسلام وقبل استكمال الوحدة الثقافية العربية . ولا بد لكي نفهم واقعنا ونبني مستقبلنا أن نعرف ما في مجتمعنا من بذور ورواسب لهذا الماضي الطويل . ولا يزال هذا التراث العربي بمعناه الشامل قادراً على أن يوحي لمثقف اليوم وأن يفتح له مجالاً للاقتباس والابتكار يكسب العمل الثقافي أصالة لا تتهيأ لمن حرم من معرفته . ولم يحدث في تاريخ الحضارات أن انقطعت الأسباب بين الحضارة السابقة واللاحقة ، وليست الأمم الحديثة في الغرب او الشرق ترضى لنفسها ان تجهل تراثها ، وانما جهدها يقوم على زيادة الفهم لهذا التراث وزيادة الانتفاع به .

وانما بدأنا بهذه النقطة لأن من اهداف الاستعمار الجديد أن يبث جذور التراث من نفوس المستعمرين ليكونوا على استعداد كامل لتقبل الصور التي يلقنونها ، او أن يبقى التخلف الثقافي مرتبطاً بقشور هذا التراث القديم ليقضي على كل طموح وتفتح ومراجعة عقلية . وينبغي لنا أن نتجنب الأمرين جميعاً ، وأن نعمل على تنمية البذور الصالحة من هـــذا التراث وتعهدها لكي تزدهر على المستوى الجماهيري . فتبرأ الجماهير من الجمود وتبرأ ايضاً من العنف والبساطة الساذجة التي تجعلها تصدق كل شيء .

ثانياً — وتتبع هـــذه النقطة الاولى ويكملها ان يعرف المثقف العربي الواقع الحالي لأمته ومجتمعه . ومعرفة هذا الواقع والاحاطة به يستلزم شيئين : دراسة علمية جادة للمشاكل القائمة ، والتحاماً كاملاً بالمجتمع الذي يعيش فيه المثقفون . وكثيراً ما تثير الدعوة الثانية ، اي الالتحـــام بالجماهير ، فزعاً عند بعض المثقفين الذين يتحدثون عن المستويات الثقافية ، ويظنون أن معايشة الشعب

ومعاشرة الجماهير استيحاء وانتاجاً ومخاطبة سيهبط بمستوى الانتاج الثقافي بدلاً من أن يرتفع به . وهذا شعور نجده عنـــد كثيرين من اصحاب الفنون التشكيلية والتعبيرية ، وهم مع ذلك يقعون في أزمـات لا يستطيعون الخروج منهـا ، اذ انهم يتمثلون المجتمع الاوربي حين يصورون ويلحنون ، ثم يبدو كون أنهم لا يستطيعون اضافة جديد الى مـا ينتجون ، فيصبحون تلامذة لمدارس الغرب وأساتذته ، ويظلون في مستوى التلمذة ، فلا يظفرون باعجاب اولئك ولا يتجاوبون مع أبناء شعبهم . وأعتقد أن سوء الظن بالجماهير واتهـام الشعبية بالاسفاف أثر من آثار الاستعمار الجديد أيضاً وان تكن له جذور أقدم من ذلك . وأحسب أن علاج ذلك مزيد من الالتحام بالجماهير ، فان في هذا مما يطرد الغربة عن الفنان الحقيقي ويتيح له فرصاً لو استطـــاع بموهبته الانتفاع بها لحلت له أزماته وهدته الى الطريق الذي يكتشف فيه شخصيته متفاعلة مع شخصية أمته . وقد قامت في هـذا المجال تجارب في التصوير وفي التلحين الموسيقي تبشر بخير وتثبت أن الطريق غير مسدود .

ثالثاً ـ ان المثقف العربي يعيش في عالم تزداد حلقات الارتباط بين أجزائه يوماً بعد يوم ، عالم اصبح صغيرا بالقياس الى العصور السابقة بحيث اصبحت لا تفهم احداث منطقة منه الا على ضوء احداث المناطق الاخرى . ومعنى هذا أن العزلة الحضارية القديمة لم يعد لها وجود في عالم اليوم . وسيؤكد المستقبل هذه الحقيقة . ومعنى ذلك أن المثقف العربي اذا رأى ان يسهم ايجابياً في تاريخ امته وعصره وعالمه فلابد ان تتسع آفاق ثقافته لتشمل العالم كله ، فلا تقف عند نوع دون نوع ، ولا تقتصر على أدب دون أدب . والاستعمار الجديد يحرص على أن يكون للثقافة في البلاد المتخلفة منبع واحد هو منبع المستعمرين الجدد ، ويكاد المثقفون

العرب يجهلون ثقافات تحيط بهم جنوباً وشرقاً ، ولا بد من ان يمكنوا من النظر الى الجهات الاربع ولا يركز بصرهم على جهة واحدة . ولا بد من جهود مثمرة في هذا السبيل . ان طموح المثقف العربي ينبغي ان يتجاوز الحدود ، ولن يتحقق له ذلك الا اذا تزود بثقافة عالمية شاملة ناضجة متكاملة تعينه على أداء رسالته والقيام بدوره في خدمة الانسانية جمعاء .

رابعاً - وحين يتصل الأمر برسالة المثقف ودوره في الحضارة الانسانية تجيء فكرة التقدمية وتفرض نفسها فرضاً ، ويجيء التطلع الى المستقبل المنشود للانسانية ، في مجتمع يسوده السلام والعدالة ، مجتمع يتخلص من الارهاب والظلم الاجتماعي ويبرأ من الاستغلال بكل أشكاله وأنواعه . وهذا مايزعج الاستعمار الجديد لأنه يقلم أظفاره ويضرب قواعده ويفسد عليه خططه . والمثقف العربي ينبغي أن يشعر بمسؤليته في هذا السبيل ، وأن يعلم أن الصراع القاتل العنيف الذي يجتاح الدنيا اليوم هو صراع بين الاستغلال والطبقية الممتازة والتمييز العنصري من جانب ، وبين الاشتراكية والعدالة والمساواة في الحقوق من جانب آخر . وانتماء المثقف العربي الى أمة كانت ولا تزال فريسة للاستغلال الرأسمالي بصورته القديمة والجديدة يحدد له موقفه ويبين له طريقه . وحين يكتمل لهذا المثقف العربي وعيه بتاريخ أمته وتراثها وادراكه لواقعها الحالي والتحامه بجماهيرها ، وحين تنضج ثقافته وتصل الى المستوى العالمي ، لن يملك الا أن يكون تقدمياً ، ولن يستطيع الا أن يكون خصماً للاستعمار الجديد كما كان خصماً للاستعمار القديم .

رسالة الأديب

في مكافحة الأمبريالية (١)

... لكي ندرك كيف تحاول الامبريالية تجنيد الثقافة في خدمة السياسة والحرب الاستعمارية يجدر بنا ان نستمع الى وزير الخارجية الامريكية السابق ، فيليب كوفر اذ يقول : « ان لكل من الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية دورها ، في حين ان المكون التعليمي «الثقافي» يمكن ان يدعمها بطرق شتى . واذا استخدم بذكاء وحذق أمكن ان يحقق اموراً تعجز عن تحقيقها الوسائل الاخرى . وهذا البعد - يقصد البعد الثقافي - يكسب السياسة الخارجية الامريكية حيوية متجددة وعمقا ومرونة» .

---

(١) قسم من البحث الذي قدمه الى المؤتمر فريق من أعضاء وفد أدباء الجمهورية العربية السورية

ولكي تجسد الامبريالية الامريكية هذا البعد في الواقع العملي فانها مضطرة الى استخدام كل المؤسسات العلمية والثقافية، والنفوذ الى داخلها وتوجيهها. وما انكشف اخيرا من سيطرة المخابرات المركزية على المنظمات الطلابية في العديد من بلدان العالم، ثم على الأجهزة الثقافية كمنظمة حرية الثقافة التي كانت تصدر العديد من المجلات بتمويل المخابرات المركزية ذاتها، وما انكشف ايضاً من سيطرة هذه المخابرات على جميع اوجه النشاط الثقافي الذي مارسته الولايات المتحدة في مختلف الأقطار مثل جمعية أصدقاء الشرق الأوسط، او حتى الهيئات العلمية كالجامعات والمعاهد المنتشرة في اكثر من قطر عربي ... كل ذلك يؤكد مدى الاهمية التي تعطيها الامبريالية للنفوذ الى داخل عقول المثقفين وربطهم عن طريق أجهزة تبدو ثقافية محضة بالمخابرات التي تستفيد من ذلك مباشرة في توجيه السياسة الاستعمارية وتدبير المؤامرات والانقلابات. وليس من قبيل المصادفة أن تكون مؤسسة (فورد) مثلا من انشط الاحتكارات في المساعدة على بناء المؤسسات العلمية، بل وحتى الجامعات في البلدان المتخلفة.

ان الأقنعة التي تختفي وراءها الدعاوة الامبريالية، والامريكية منها بوجه خاص، من الادعاء بمحاربة خطر «الشيوعية» الى حماية الديمقراطية وحماية الفرد وحريته، هذه الاقنعة لم تستطع ان تخفي في أي وقت الحقيقة الواضحة وهي أن الدوائر الاستعمارية تحاول ان تجعل من نفسها شرطياً دولياً - ليس فقط في المجال الاقتصادي والسياسي - وانما في المجال الثقافي ايضاً. ولكن هذه الحقيقة تخفي بدورها مضموناً عنصرياً هو في اساس الثقافة الاستعمارية. انها عقلية الوصاية على شعوب لم تنضج بعد، عقلية مازالت الدوائر الاستعمارية تفكر من خلالها وتتصرف داخل اطارها.

وبنشر هذا الفكر العنصري تحاول الامبريالية ان تشد الى صفها كل مثقفي العالم الثالث ، خاصة اذا ما ادركنا ان القسم الأكبر من هذه البلدان مازال يفتقر الى بنية ثقافية عصرية وناضجة .

وقد خلقت الثقافة الامبريالية نوعين من الشخصيات كلاهما لاغنى عنه : النوع الاول يندرج في مآسيه بظاهرة النكوص . فبعض من تعرض للتأثيرات الامبريالية المبرمجة احس بخطر الذوبان والتلاشي . وكانت ردة الفعل عودة متقوقعة الى مفاهيم وقيم ومعان عطلها الزمن او طمرتها الاحداث فلم تعد حقيقتها الناصعة تبين او شوهت الامبريالية اصالتها من غير ان يدري المثقف . ووجدت الرجعية العربية متنفسا لها وحجة عندما تصدت لتيار التحرر القومي الاشتراكي كي ان تدافع عن هذه القيم والمعاني والمفاهيم في صورتها الحاضرة ، وتستر عجزها عن فهم عصر العلم والتكيف معه .

والنوع الثاني من الشخصيات تندرج في مآسيه بظاهرة الانخلاع . كثيرون هم الذين رفضوا كل شيء ، رفضوا التاريخ العربي والشخصية العربية ، والعروبة جملة وتفصيلا . وظهرت لهم دعوات تدعوها مرضية أهمها الدعوة الاقليمية وتظاهرات أهمها استيراد هموم انسان المجتمعات الغربية وسلبيته . ان الدعوة الى الكتابة باللهجات المحلية احدى نتائج هذا الانخلاع ، والاستغراق في الجنس والخمر والعبث نتيجة ثانية . ومرة اخرى أفادت الرجعية من هذا التيار التبرر نفسها . ونشأ الصراع بين الاتجاهين الغريبين ، ليهدر طاقات ويلهي جماهير المثقفين عن قضيتهم الاساسية . والى جانب هذين النوعين من الشخصيات نشأ نوع ثالث هو الشخصية الواعية الايجابية . لقد استطاع كثيرون من أبنــاء الوطن النجاة من متاهتي النكوص والانخلاع وكونوا لأنفسهم رؤية ووجهة نظر ، وتبنوا قضية . وعلى هؤلاء بالدرجة الاولى يقع عبء مكافحة الامبريالية ، ككتاب ومثقفين .

موقف الأديب العربي :

ان مانعنيه بالأديب في مواجهة الامبريالية هو الاديب المتمثل لهموم وتطلعات سواد الشعب، المتكلم باسمه والراصد لموجات نضاله . وهو في هذا الميدان يضطلع بمهمتين أساسيتين : الأولى مشاركته الفعلية والحاسمة في النضال السياسي والاجتماعي لشعبه . فالأديب ليس متفرجاً ، ولا هو شاهد وحسب . وحياته لاتكتسب معانيها وقيمها الا بالممارسة . الممارسة وبعدئذ الشهادة . وفي حدود امكانياته الشخصية يستطيع أن يأخذ دوره في معركة وطنه بدءاً بالتبني الموضوعي لهذه المعركة ووصولا الى النضال الشعبي المسلح .

المهمة الثانية هي تكريس الأديب انتاجه لتقديم نماذج ثورية مكافحة عبر الزمان والمكان . ان المعاني والقيم الانسانية والجمالية تنبثق من نضال الشعوب لتحرير ذواتها وطاقاتها ولتحطيم الاستعمار فلسفة ووجوداً . لقد رأينا كيف طوقت الامبريالية العالم عسكريا وبشريا ثم اقتصاديا وسياسيا وثقافيا . ورأينا ان إنهاء عصر الامبريالية ليس فرض كفاية ، وانما هو واجب محتم على جميع الشرفاء . ان الاديب في هذا المحتوى وهذه الظروف ، لايسعه ، وهو ضمير امة وصوت نبوة ، الا التغلغل عميقاً في وجدان امته المضطرم وتجارب حياتها المتكسة والظافرة .

ولعل سائلاً يسأل : ألسنا ضمن هذا الخط نقع في تحديد معالم الاديب وتوجيه قسري لانتاجه ؟ وجوابنا عن هذا السؤال ببساطة هو : كلا . ان النضال ضد الامبريالية ليس نزهة في الزمن وتيار الحياة ، قد تفضلها نزهات اخرى. فنحن ، وجميع شعوب العالم الثالث ، نعيش مخاضاً حضاريا ونعاني من تدخل قوى خارجية معادية تحاول اجهاض ولادتنا الجديدة . ان معنى حياتنا واستمرارها

رهن بالتصدي للامبريالية ودحرها . وهذه النماذج ، الفردية او الجماعية ، التي تعاني معركة حماية الذات وتوليدها ، هي الجديرة بسجل الادب لانها الحركة الوحيدة المعبرة عن عافية الأمة وجريان التاريخ . انه عالم رحب ، فيه تشهد الانسانية لأول مرة شعوباً بأكملها تعبر عن شخصيتها ضمن اطار عالمي من المشاركة ووحدة المصير ، وفيه تشهد الانسانية لأول مرة عملية تطهر فردي وجماعي عبر صراع محتدم ومباشر مع القوى المعادية ورواسب التخلف في الذات القومية .

ان توكيدنا على هوية الاديب الشعبية يعني اننا نرفض شعراء البلاط **وحكايات الجنس والحب الخائب والانتاج الترفيهي المسطح** . وهو يعني تضاعف مهمة الاديب وشمولية رسالته .

وفي رأينا أن موقف الأديب ، انطلاقاً من هذا التصور ، يتخذ مجاري ثلاثة :

- مقاومة الغزو الثقافي الامبريالي .
- التحرر الذاتي .
- تقديم التراث تقديماً ايجابياً .

قلنا ان الامبريالية تستخدم لادامة سيطرتها على العالم اسلحة ثقافية فعالة، وان هذه الاسلحة تشمل الافلام والكتب والمجلات والصحف والنشرات والمراكز الثقافية والمنح الدراسية والمدرسين . وتعمد الامبريالية كذلك الى افقار شعوب العالم الثالث من مثقفيها بامتصاصهم او خنق مواهبهم والى تشويه تراث الأمم وتقديم بديل كاذب تخلقه هي وتفرضه .

ان محاولات التأليف بالفرنسية او الانكليزية مظهر من مظاهر

نجاح غزو الامبريالية الثقـــافي لشعبنا . وان الدعوة الى نبذ العربية الفصحى والانصراف عنها الى اللهجات العـامية الاقليمـيـة مظهر آخر . الشعر الطويل المنفوش ، والعبث ، واللامعقول ، والضياع والغربة ، والجنس والسأم ، والبطل الذي لايقهر ، واسطورة الرجل الابيض . . . كل هذه مظاهر اخرى لنجاح هذا الغزو .

ونحن في مقاومتنا للهجة الثقافية الامبريالية ننطلق من فكرة أساسية : ان وطننا لم يستقل الا استقلالا جزئياً ، وان آخر مايرحل من مخلفات الامبريالية هو ثقافتها . وفي وجه البحر الزاخر للثقافة الامبريالية نجد انفسنا معرضين للضياع كشخصية وقيم ونضال . والأديب مطالب بدخول معركة اثبات وجود وتوكيد ذات قومية نامية . ان مهمته الكبرى تقديم نماذج أصيلة تعيش ابعـــاد الثورة ومتطلباتها . فليس « غودو » الذي ينتظر مالا يجيء مثالاً ، ولاهو يمت بصلة الى محمود حجازي وثروة عبد الهادي . و « دينو » بطل السأم الذي ينتهي الى المستشفى اثر حادث سيارة ليس مازن ابو غزالة الذي سقى بدمه تراب فلسطين . وشعبنـا ليس شعب خراتيت يرسلها يوجين يونيسكو في شوارع المدينة . لقد قدم العقل الامبريالي شخصية اخرجتها مصانعه ، هي مزيج من دينو و غودو والرجل الأبيض والخنافس ، وطرحها في السوق العربية ، وهو في هذا منسجم مع مخططه الشامل في ملء الفراغ الذي زعم وجوده في المنطقة . وكما كان رد القوى التقدمية حاسماً وفورياً على مشروع ملء الفراغ السياسي في وطننا ، ينبغي ان يكون ردنا على محاولة ملء الفراغ الثقافي .

ولهذه المهمة التاريخية ، كما لمهمة المقاومة السياسية للامبريالية ، طريقان هما : التصدي والبنـــاء . ان وطننا غني بالأدباء الممتازين ، وغني ايضاً بالمجلات

والصحف التي تعني بشؤون الأدب والفكر . ويمكننا ان نخلق اكثر من منبر لتشريح البنية السامة للثقافة الامبريالية . ونحن هنا لا نرغب في اقصاء الفكر الامبريالي لأننا لانريد ان نغمض العين عن عدونا . على العكس نريد أن نستغرقه بحثاً وفهماً لنعرف كيف يتصيد عقولنا ومواقفنا ويحرفها نحو الاتجاه الذي ترسمه له مصالحه .

على اننا ينبغي ان نكون مزودين بوجهة النظر. ان الاتهام والادانة المجانية لايمحوان اثراً ولا يردان ضرورة . كما ان البحث العلمي في معطيات الثقافة الامبريالية اقدر على اظهار الوجوه الشائهة والمرامي الهدامة لهذه الثقافة . لقد رفضنا البورجوازية والاستعمار بكل اشكاله . ومن هذا العرض ندرس ثقافتها ونرد عليها . وجهة نظرنا هي الرفض لا التجنب ، التحليل لا الشتم . وجهة نظرنا في الانسان انه كائن مناضل يبني وطناً ، وفي الادب انه تعبير عن هذا النضال . ان كل اثر تقدمه الثقافة الامبريالية يحمل صك نفيه عن الوجدان العربي . ويستطيع الادب ان يلج الى هذا الميدان من بوابة واسعة . علينا عندما نترجم مسرحية لتينسي ويليمز أو يوجين يونيسكو ان نقدمها في اطار نقدي مبني على وجهة نظرنا نحن ، وعندما نقدم بحثا لجون ستراتشي ان نرده الى المنطلقات البورجوازية والرأسمالية الذي صدر عنها . ان رسالة الأديب في هذا المضمار هي ان يعيد تقديم الأدب الذي تحاربنا به الامبريالية العالمية وتقييمه بمقاييس قومية اشتراكية . وتجدر الاشارة هنا الى التقصير الواضح في كيفية تقديم هذا الأدب ، وهو تقصير افاد مخططات الامبرياليين وسهل لها النجاح .

ان افضل ما نحارب به مخلفات الثقافة الامبريالية وضغوطها المستمرة على وعي الجماهير هو تقديم نماذج عربية نضالية . مطلوب منا ان نحارب تشكل هوية

مزورة ، ان نحارب اليأس والمغامرات المرضية ، وان نقدم حياة هذا الشعب الذي يتصدى في حدود امكاناته ووعيه لأقوى قوة عرفها التاريخ واكثرها تعقيداً في المخططات والأساليب . اننا لن نحدد النموذج العربي النضالي فهذا أمر يعود الى اختيار الأديب ورؤيته ، ونعتقد اننا جميعاً نملك صوراً متشابهة أو متقاربة .

ثمة جانب آخر من جوانب التحرر الذاتي في شخصية الاديب وشخصية شعبه ، هو تعميق الحس الاشتراكي القومي . ان رسالة تقديم البديل تفترض ذلك بالضرورة . لقد قدمت الامبريالية نموذجاً شائها وكاذبا للانسان وارادت ان تبثه في واعية شعبنا . وقد قدمت الرجعية العربية نموذجاً آخر مغلقــاً سكونياً ومتخلفاً وحاولت ان تبثه ايضاً ضمن مقومات وأطر روحية وتاريخية احسنت استغلالها . واذا اعتبرنا ان الامبريالية والرجعية وجهان لكتاب واحد — وهما كذلك — ظهرت أمامنــا ضرورة تقديم بديل يحافظ على شخصية الأمة الحية الأصيلة ويكفل تطورها وتعبير طاقاتها . نحن نعتقد ان انسان الحاضر والمستقبل العربيين هو الانسان القومي الاشتراكي واننا نطمح الى اقامة مجتمع عربي اشتراكي موحد . هذا الاعتقاد يزودنا بوجهة النظر باسلوب الحكم والمعالجة . واذا ما قدم الاديب نماذج ، فانطلاقاً من قربها او بعدها عن صورة النموذج القومي الاشتراكي . حتى عندما نكتب عن الجوانب السلبية والمتعطلة ينبغي ان يكون رائدنا تعميق هذا الحس القومي الاشتراكي . قد لانستطيع نحن او بعضنا ان نحارب الامبريالية والصهيونية بأيدينا ، لكننا نستطيع ان نسهم في اعداد شعب يفعل ذلك .

الالتزام :

يفضي بنا حديثنا هذا الى مشكلة الالتزام . ونقول مشكلة لأن الواقع

الراهن يعيشها على هذا النحو . فمن اختلاف التفاسير الى اختلاف المواقف ، الى المهاجمات والاتهامات ، تعقدت قضية الالتزام . ويهمنا هنا ان نتصدى لموقفين لهذه القضية : هما موقف الامبريالية والبورجوازية الرجعية في وطننا ، وموقف المسطريين .

تصور الامبريالية الالتزام في البلدان الاشتراكية على انه هراوة عقائدية تستخدمها السلطة لتقمع الاتجاهات غير الملتزمة بسياستها ، وتجعل من مبدأ الالتزام بالشعب صيغة فاشستية تبرر السجن والتشريد والملاحقة . ان هذا التصوير متوقع ومنسجم مع غايات الاستعمار ومراميه . فهو لا يريد لاية حركة شعبية ان تنجح في تنظيم نفسها او تقديم عطاء جدي ، وهو يعزف على وتر الحرية لمعرفته بانها تنقلب في البلدان المتخلفة الى فوضى وهدر وتزوير . وهو يخاف من أي التزام شعبي تقدمي سياسياً كان ام ثقافياً ، لانه في النهاية سيقضي على مصالحه وسيطرته . انه يريد من الأديب العربي ان يجلس في المقهى ويعلك الاتهام والادانة ، فاذا ما حل الليل عمد الى زجاجة خمر وجلس في مكان ما منتقداً او مهدداً او يائساً . الامبريالية تعرف ان الالتزام بالنسبة للأديب العربي بوصلة في الضباب ، انه سيجعله عاكفاً على ذاته وشعبه يستنبتها ويستولدهما بعيداً عن الارتجال والسلبية ملتحماً بايمانه الأصيل ، ساعياً وراء الانسان الجديد الذي قرر ان يصنعه لمجتمعه .

ان مبدأ الالتزام بقضية الشعب يعني بلورة نضال الاديب ضد الامبريالية في مذهب متكامل ايجابي وتعرية المخططات الثقافية الاستعمارية الهادفة الى تشويه شخصية العربي او تغريبها .

الموقف الثاني تجاه الالتزام بالشعب موقف من سميناهم بالمسطريين . وهؤلاء يفهمون الالتزام على انه عبارات غزل وتمجيد توجه للسلطة وللشعب

وللمنجزات المتحققة وغير المتحققة . ان مثل هذا المفهوم عن الالتزام يفقده قدرته على التحرك والانتاج ويفرغه من محتواه. ضرورة استمرار الثورة لا تبرر السكوت عن انحرافاتها، ومهمة الاديب ان يعلن رؤيته من موقف ايجابي .

ونحن نرى ان كلا الموقفين غريبان عن رسالة الاديب العربي في الالتزام. فليس صحيحاً ان الالتزام يتنافى والحرية . أو انه طبول ومزامير للسلطة . ان اكثر الناس حرية اكثرهم التزاماً . والالتزام ولادة حرة لأنه بالاصل مصيري . انه ليس ولادة قيصرية ولا غزواً مبرمجاً .

ان الثورة قاعدة الحرية . وعلاقة الأديب بها علاقة جدلية تفرض نفسها عبر حيوية الثورة والالتصاق التلقائي للأديب بسيرتها . وليس المقصود هنا ان الأدب كل الثورة ، لكنه في الحيز الذي يملكه يغدو سيد أرضه . انه ليس دفوفاً تدق ولا مزامير تزن . وانما هو ابداع الانسان الجديد سلوكاً ومعاني وعلاقات منتجة عادلة .

الأديب الملتزم يستهدف الانسان منطلقاً وغاية . هو كمعنى رد الاعتبار للكادح ، وكعملية اشباع لجوعه التاريخي . والجوع ليس فقط حضور الحاجة الى الخبز ، فليس بالخبز وحده يحيا الانسان . ان العبد الشبع والحر المتضور صنوان ، وهما شاغل الاديب الملتزم وقضيته . نحن لانستطيع ان نجزىء الانسان الى معدة وعواطف وأكف . وكما لا يمكننا تقليصه الى رغيف خبز لا يمكننا القبول به بالوناً منفوخاً بالشعارات والعبارات الخلابة تستطيع جزمة الفلاح ان تفجره .

الأديب الملتزم لايكتب فقط عن شعبه وانما يبدعه . واذا تذكرنا دعوة فرانز فانون للمثقفين ان يتجاوزوا ماركس وفرويد وسيزير وسنغور ونكروما

الى البحث عن نماذج ، الى ان يبدعوا ويخلقوا ، ادركنا عظم مسؤولية الأديب في عصر جامح مخاخل مليء بالمتناقضات .

في وطننا ونحن الآن نواجه جموحا مباشرا واحتلالا عسكريا ومؤامرات مستمرة من قبـــل الامبريالية ، في هذا الوطن الممتحن بكونه جبهة امامية لآسيا وافريقيا ، نرى ان للالتزام آفاقاً ثلاثة هي :

– رؤية مستقبلية .

– رؤية جماهيرية .

– موقف نضالي .

لقد المحنا الى ان الالتزام ليس وليد الصدفة ولا المرحلة العابرة ، وانما هو اختيار ينطلق من ايمان راسخ بقضية . انه لأجل ذلك يعمل للمستقبل ويبشر به ، ويشخص الحاضر واقعا وتجارب بوعيه للمستقبل . التشخيص والعمل اذن انطلاقا نحو الغد المأمول . لاشك ان في بعض مراحل الثورة نكسات ، ونحن الآن نعاني احداها . لاينتهي دائما نضال الشعوب الى نصر ، والامبريالية ليست عدواً سهلاً . ان مشكلة اعادة الثقة الى الجماهير وحفزها من جديد لاستئناف النضال تقع ضمن رسالة الاديب الملتزم بقضيتها . اننا لانقبل بدغدغة مشاعرنا والمراوغة حول احساسها بالمرارة . ولاينبغي للأديب ان يحاول تطرية النكسة ، عندما يكون تعميق الاحساس بها اكثر فعالية وقدرة في تحريك الطاقات النضالية للجماهير . فواجبه الاساسي هو تجديد الايمان بالمستقبل وفهم الحاضر . ثمة من كتب مراثي بعد الخامس من حزيران (يونيو) . وفي الحقيقة نحن نحتاج الى مراثي . لقد سقط منا شهداء كثيرون وكانوا ابطالا وسقطت مرحلة نضال لم تكن على المستوى المطلوب لمجابهة الهجمة الامبريالية والثورة المضادة وتآمر الرجعية

العربية لكنها ليست مراثي للتأبين ، انها للحزن المبدع والالم الخلاق .

ان الاديب الملتزم يفسر الواقع ، والنكسة عندما تقع ، تفسيراً موضوعيا. لايجوز ان يقع في خطيئة التخفيف او التهوين أو التغرير ، لكنه ينطلق من وجهة نظر مستقبلية وايمان لاتصدعه الظروف والنتائج المخيبة ..

هل يمكن أن يعني ايمان الاديب الملتزم بالمستقبل تستره على السلطة او صيرورته الى بوق دعاية لها ؟ لقد حاول ادباء سابقون من شتى اقطار العالم أن يفعلوا ذلك فسقطوا . وحاولوا وهم منسيون وغلفتهم تجاويف التاريخ الداكنة . ان الموقف المستقبلي لايعني امتداح السلطة ، بل تمجيد الثورة وتقويمها . والكتاب الذين آمنوا فلم يمنعهم ايمانهم عن رؤية الاخفاقات والوقائع التي مرت في تاريخ الثورة ، هم الذين خدموا شعوبهم ، وآثارهم هي الآثار التي سطعت واستمرت . عندما كتب ميخائيل شولوخوف ملحمة « الدون الهادىء » لم يكتب للثورة مزامير داوودية ولا نشيد انشاد . ان قيمة « الدون الهادىء » تكمن في موضوعيتها وواقعيتها ، وفي انها تلافت جميع العيوب التي وجدت في ادب السلفين العظيمين تولستوي ودوستويفسكي . واكثر من ذلك ، ان قيمتها تكمن في التزامها بالانسان . لم تستجد عطف احد على الثورة ولا كان ثوريوها انبياء . ولكننا فهمنا ان البرجوازية آيلة الى الاندثار وان اليمين الروسي مرتبط عضويا بالاستعمار . لقد اثبتت جميع مناهضي الثورة على نحو يتبين فيه موقفهم وفلسفتهم بغير ما تزييف . ثم اثبتت بغير ما تزييف ايضاً ان الاشتراكية تطرح نفسها جدليا لتحل محل جميع أنماط المجتمعات السابقة . ان مبرر العنف حقيقة ثابتة ، هي انه لامجال للتعايش بين الثورة واعدائها . لقد كان شولوخوف فناناً ، ولو لم يلتزم

بقضية الاشتراكية لما استطاع ان يبرر العنف والدم اللذين رافقا اندلاع ثورة الجماهير في وطنه .

الايمان بالمستقبل ليس ضرورياً فقط من اجل تجاوز النكسات ، وانما هو شرط لازم للعمل اليومي ولرؤية الواقع . ان حياتنا اليومية تقدم صورة من شعب متخلف ، يبدو اذا ماقورن بما تقدمه اجهزة الاعلام والثقافة الامبريالية من صور لشعوبها مثيراً لليأس والقنوط . والرؤية المستقبلية لاتقتصر على كونها دزعا نفسيا، بل هي أداة لتغيير الواقع وتحريك الجماهير الشعبية .

نحن لانقف موقف الشجب والمنع ازاء الاكتشافات الادبية في الاسلوب وفن الكتابة ، ولا يمكن ان نقف هذا الموقف . وفي الحقيقة أن الاديب متروك كلية لتجربته الادبية ينميها ويطورها غير مشروط بشيء سوى الأصالة . واكثر من ذلك أن الثورة القومية الاشتراكية ، بما هي من نزوع للتجديد وحركة نحو الخلق والابداع تفترض بالضرورة أنماطا جديدة من التعبير عن ذات الامة وذات الفرد . وسوف نذهب الى ابعد من ذلك فنقول ان الاديب الملتزم اقدر من غيره على تغيير او تحطيم القوالب الجامدة . ان تيارات التجديد تتلاقى جميعها في بحر الثورة سواء منها ما كان في السياسة والاقتصاد او الاجتماع والثقافة .

لقد إنطلقت رياح التجديد من مختلف النوافذ . بعض الادباء طالب باسقاط اللغة العربية الفصحى واعتبرها منافية للطبيعة الشعبية ودعا الى اللهجات المحلية العامية وسموها لغات . وقد التقت هذه الدعوة مع المخطط الامبريالي لضرب نضال الشعب العربي من اجل الوحدة وعزل تجمعاته في دوائر اقليمية تزداد انفصالا بازدياد استعمال اللهجة العامية في ادبها .

الالتزام بالشعب لايمكن أن يعني تغذية واقعه الفاسد . ونحن نعلم أن

نشوء اللهجات الاقليمية كان محصلة للتجزئة واستمراراً لها ، مثله في ذلك مثل الدعوات القومية الاقليمية والدعوات الى التغرب ونبذ التراث . الالتزام بالشعب يعني استيعاب همومه وآماله والعمل على تطوير حياته وخلق ظروف افضل لها . لقد حاولت التيارات المضادة التي بثتها الامبريالية أن تحجب عن الاديب مشاكل الشعب الحقيقية التي هي التخلف والتجزئة والسقوط بين اذرعـــة الاخطبوط الامبريالي . ويبدو واضحاً ان التزامه بنضال شعبه يتضمن اغلاق النوافذ التي تهب منها رياح دعوات عميلة كهذه .

يناضل الاديب الملتزم لتعرية واقعه العربي ورصد نضال شعبه . فاذا كان الواقع والنضال ما اسلفنا ، قلنا ان حقبة تاريخية نمر بها الآن هي اغنى مما نتصور ، ومما يستطيع اديب بمفرده ان يحيط بها . لقد هاجمتنا الامبريالية بسلسلة من المؤامرات والعدوانات ، وشل التخلف والتجزئة الكثير من امكاناتنا وجهودنا . كما اتخذ نضال شعبنا مسيرة جديرة بالتسجيل . وهذه الوقائع تلتصق بحياة الاديب الخاصة والعامة التصاقاً مباشراً . ان الواقع العربي في حاجة الى تعرية لكي تتوضح صورته في أذهان الشعب . وان تقديم الحلول والعمل لانجازها يحتاجان لاكثر من نبي واحد ! فعصرنا هو عصر الشعوب ومعركتنا تحتاج الى الجميع .

ويناضل الأديب ايضاً في ميدان الذات الفردية التي لازالت تحتفظ بجذور عتيقة وصفات نفسية رجعية . ان تعرية الذات العربية جزء من نضاله اليومي . كيف يعيش الفرد العربي ؟ كيف هي علاقاته بالآخرين : في البيت والعمل والنوادي والحياة العامة ؟ ان صورة الانسان التقدمي لم تكتمل بعد . لابد من هجرة في الذات والجماعة لاستكمال شروط تكونها عبر المعايشة والنقد الذاتي . وان نجاح مقاومتنا للامبريالية رهن من احد وجوهه بتكامل الشخصية العربيـــة وتحررها الذاتي

مرة اخرى الأديب يناضل لتعرية المخطط الامبريالي والتصدي له. وميدان نضاله لا يقتصر على الجانب الثقافي ، بل يشمل الحياة القومية بأكملها . ان السياسة خبز يومي ليس بمعنى العلاقات الدبلوماسية وحياة الكواليس ، وانما بمعنى النضال التحرري المستهدف اقامة مجتمع عربي اشتراكي موحد .

والاديب الملتزم، في كل ما تقدم، يكون بشيراً ونذيراً : بشيراً بالمستقبل والغايات العظمى، ونذيراً بتآمر الامبريالية وحلفائها وبعدوانها المستمر على شعبه .

رسالة الأديب

في مكافحة الصهيونية

د. عمر الدقاق

ان لزوجة الدم العربي الطاهر التي خضبت الأرض قد أسكنت الى الأبد تلك الأصوات الناشزة التي أطالت وقوفها وترددها وهي تتحدث حديثاً أجوف عن فلسفة الجمال وتتساءل في شك وهي تشيح بوجهها عن المأساة كيلا تتأذى بها: هل ينبغي أن يكون الأدب للحياة ؟ غير أن فئة أخرى أشد مكراً وأكثر مضاء تقف في الساحة في زي آخر .

وإذا كان العرب اليوم قد رفعوا شعار « كل شيء للمعركة » واجمعوا على تصفية آثار العدوان، فان عليهم في الوقت نفسه ان يبدأوا بتصفية آثار الغزو الفكري وازالة معالم التيارات الثقافية الضارة التي دأبت على توجيـــه رصاصها المكتوم الى الجبهة الثانية : الشعب . ان الاستراتيجية الحديثة للاستعمار الجديد والصهيونية لم تعد تتمثل في احراق الكتب وانما في اصدارها ، بل في اغراق ملايين القراء بفيض سمومها المحلاة . فالاستعمار الجديد يتسم في بنيته بالتلازم والتلاحم بين الجانب الفكري الثقافي والجانب السياسي العسكري، ويسير الحرب الفكرية والنفسية في خط مواز للحرب العسكرية التقليدية . ألم تصدر كتب عربية تصور امريكا على أنها أرض السحر وموئل الحرية، وتبرز انكلترا على أنها موطن الأخلاق الرفيعة و كعبة الديمقراطية، وتجعل من اسرائيل واحة الاشتراكية..؟

لقد تسلل أعداؤنا الى عقولنا وتسربوا الى نفوسنا مستترين وراء نفر من أبنائنا بعد أن جعلوهم يمسكون بالقلم، والذهب يملأ أيديهم . كانت ثمة مؤسسات مريبة ودور للنشر مشبوهة تصدر كتباً كثيرة حافلة بكل أكاديمي طريف في العلوم والآداب، وتدس في ركامها بعضاً مما ترمي اليه ، فلا يلبث القارىء العربي أن يتناول الجرعة دون أن يحس بوطأتها . كذلك كان حال مؤسسة فرانكلين بموسوعاتها و كتبها، ومجلة حوار والمختار للكبار، والمغامر وسوبرمان للصغار، فضلاً عن الصحف العديدة المأجورة . بل كان هذا شأن جامعات أمريكا حاملة مشعل النور في بعض العواصم العربية ، وجمعية أصدقاء الشرق الأوسط وما اليها . . انها جميعاً مشدودة بخيوط تتصل نهاياتها بالمخابرات الامريكية تتغذى بأموالها وتتحرك بايعاز منها . انها في حقيقتها قلاع للاستعمار الفكري الجديد اتخذت لنفسها هيئة حصان طروادة .

لابد لنا في هذه المرحلة الخطرة من حياتنا من ان تنظف ساحتنا ونتشدد في حماية أمتنا . ان في تعاون بعض أدبائنا مع مثل تلك المؤسسات مزلقاً خطراً لأنها في أفضل الأحوال تمتصهم وتسلبهم من قومهم ، فاذا هم بعد حين قد تأقلموا واستمرأوا ماهم فيه من رغد العيش ، ولم يعد بوسعهم ان يمارسوا مهمتهم القومية الطليعية ، وهكذا يتردون من حيث يشعرون او لا يشعرون في مهاوي الخيانة وينزلقون من صعيد التعامل الى درك العمالة .

ان ارضنا يجب ان تخلو من هذه القواعد الثقافية الوطنية الأجنبية ذات الوجهين، لأنها كالموت مستعجلا يأتي على مهل ويدأب في اغتيال الفكر العربي، ومن ثم التحفز العربي .

وكثيراً ما يحرص بعض المنتفعين على عرض الصهيونية والاستعمار أو اسرائيل وامريكا على انهما أمران متمايزان ، وان العدو الحقيقي المنظور هو اسرائيل . ان الامبريالية والصهيونية في عقدتنا سيان ، وهما وجهان لقطعة نقود واحدة ، ومصالحها واحدة ومتشابكة بحكم تلاحمها العضوي . وان كل مفهوم يفصل رأس الأفعى عن سائر جسدها ينم عن الغفلة والسذاجة ، لأنه في حقيقة الأمر تبرئة للاستعمار . ولا مفر لنا من رؤية الحقيقة ساطعة وهي أن اسرائيل واجهة الامبريالية العالمية والمخفر الأمامي للاستعمار الشرس .

ان الصهيونية بحكم تجسدها المادي في اسرائيل لايمكنها في سبيل ادامة بقائها المفتعل الا ان تكون جزءاً من الثورة المضادة وبؤرة للقوى الكائدة للتحرر . فهي في صف القوى الرجعية والرأسمالية التي تجهض الثورات وتكبح جماحها وتحرفها .

انها تدرك جيداً أن أداة الحرب وحدها غير قادرة على حماية وجودها

المصطنع في فلسطين وليس بوسعها مواجهة طاقة بشرية من العرب تحيط بها وتطوقها . ولهذا كان الفكر والثقافة والأدب والفن اسلحة ماضية تسعى جاهدة في استعمالها ضد العرب .

وفي طليعة ماتعتمد عليه خلق تيارات فكرية خبيثة تعبث بالمعطيات الفكرية وتظهر تراث العرب الفكري والثقافي والروحي بمظهر التخلف عن معطيات العصر الحديث . وعندئذ تأمل الصهيونية ان تنقطع الاسباب بين العربي وبين ماضيه العريق وتراثه التليد ، لأن ذلك الماضي المشحون عبر القرون المديدة بالأرث الحافل من العزة والأمجاد والمثل كفيل بأن يكون حافزاً على النهوض وانه اذا ماقدر لهذا التراث أن يهدر وذلك النسغ أن يجف فقد العربي اصالته ، واضاع شخصيته ، ولم يعد قادراً على الثقة بنفسه ، والاصرار على أهدافه .

وان اخطر ماتصدر عنه وتطمح اليه الصهيونية ، وواجهة الامبريالية في الوطن العربي ، إلحاحها الدائب على ان خير طريق الى السلامة قيام التعايش بينها وبين العرب ، مستمدة لغايتها ماحققته من كسب مؤخراً في معركة الصراع المرير بينها وبين العرب . وماهذا التعايش السلمي في حقيقته وكما تريده الصهيونية في تضليلها الدائب سوى تعايش استسلامي ، غرضه نشر روح اليأس والتخاذل بين العرب . ان كل دعوة الى السلام ان هي الا دعوة قتالة الى الاستسلام .

على الاديب العربي ، باعتباره قائداً في امته ورائداً ، ان يتصدى لهذه الفكرة الخبيثة فيظهر زيفها وخطرها ويبين ان ذلك التعايش المزعوم ان هو الا تعايش بين الذئب والحمل والغالب والمغلوب والمعتدي والضحية .

ذلك التعايش الذي تريد الصهيونية ومن ورائها الامبريالية العالمية التبشير به أو شراءه ليس في حقيقته الا تكتيكا مرحلياً ، يأمل العدو ان يجد له بين العرب آذاناً مصغية على مر الزمان .

ان العدو الماكر يصطنع قناعاً انسانياً يخفي وراءه انيابه الحادة ويلبس قفازاً حريرياً ليمهد الى ارتكاب جريمته ويتظـــاهر بالسلام ليمكن لنفسه في الارض المغتصبة .

ان كل نجاح يحرزه العدو في هذا الطريق انما يعني في النهاية كبح جماح القومية العربية واسقاط المقاومةالعربية .وبذلك يتم تفتيت الطاقة العربيةويصبح الطريق مفتوحاً الى رقاب العرب .

ان أديبنا العربي مطالب ان يعمل بدأب في بعث روح العزيمة والإباء والتلويح بالخطر الماحق ، وأن يجهد في وأد روح التواكل والتخاذل ، ويؤكد بلا هوادة ان الشعوب هي التي تصنع قدرها وتكتب صفحات تاريخها .

ان الحركة الادبية الصهيونية كانت تسير منذ البداية في خط موازللحركة السياسية في نسق واحد مخطط مدروس . وكان الهدف الاول في ذلك احياء العبرية وجعلها لغة قومية . لقد تجند الادب الصهيوني لخدمة قضية سياسيةمسبقة دون اعتبار لاي حقيقة أوحق . بل ان القصد كان واضحاً في جعل الباطل حقاً عن طريق تشويه الحق العربي الواضح وتزييف الحقيقة التاريخية الساطعة . وفي سبيل هذه الغاية الحيوية دأب الفكر الصهيوني على تحويل الرأي العام العالمي عن طريق الجاليات المبثوثة فيه وتوجيهه الى التسليم بقضيته على أنها قضية عادلة . وكانت الوسيلة أبداً دس السم في الدسم بمقادير معلومة . وقد نجح اليهود الى حد كبير في تسميم أفكار المجتمعات الغربية بصورة مركزة دائبة فكانت اكبر عملية تزييف اجتاحت الفكر الانساني عبر العصور. ومن هنا كان أهم الخطوات في الطريق الصحيح على صعيد الفكر والادب الانفتاح على الفكرالعالمي .

لابد من التخطيط في الأدب فيحل اعدائنا في هذا المجال . لقد أهرقنا

انهاراً من الحبر على أطنان من الورق ، ولكننا لم نقل شيئاً هاماً ذا بال. وما ذلك الا لأن ما كنا نقوله لم يكن مدروساً . واذا كان يراد لصوتنا ان يكون مسموعاً وسائغاً في مسامع المواطن الغربي فلنتعلم كيف نخاطبه . ان ماينجح عند الغربي بل عند كل انسان هو هدوء المنطق لا الصخب المثير . وهذا مايتوجب على الأديب العربي ادراكه فيدأب في تفهم العقلية الغربية حتى يعي طبيعتها ويتوجه اليها فيما يكتب .

ان نتاج الأديب العربي لايمكنه في هذه المرحلة ان يكون مقبولا وناجعا الا اذا ارتكز الى دراسة شاملة لأدواء أمته وحقيقة مأساة قومه في فلسطين . ولن تكون دراسته كاملة الا بوقوفه على الحركة الصهيونية وتعاليمها ومرتكزاتها من أفواه اقطابها ومن خلال اعمالهم على السواء . لأن مواجهة الخصم مواجهة صحيحة تقتضي معرفته معرفة تامة . وستبقى قضيتنا خاسرة مادمنا مترددين في هذه الهوة .

نريد لأدبنا منطلقاً جديداً مكيناً ، قوامه النظرة العلمية الفاحصة ، والانفعال الصادق العميق ، والرؤية السديدة الواضحة .

لنعترف ان صوت ادبنا العربي كليل أبح ، لايبلغ مسامع أحد في العالم ، فهو ينتج محلياً ويستهلك محلياً ايضاً ، وقلما يتجاوز الآفاق العربية ، شأنه في ذلك شأن الأصوات العربية على الصعيد نفسه في مجالات السياسة والإعلام . . على حين تتجاوب أصداء الأدب الصهيوني في أرجاء الأرض موازية في ذلك نشاط الصهيونية العالمية الواسع .

ان خروج الفكر العربي من نطاقه المحدود الى الآفاق الخارجية أمر حيوي ، حدث في الماضي ولا بد له ان يحدث اليوم . ولكن هذا المطمح الذي يتطلع اليه فكرنا العربي الآن عسير المنال ، لايكفي ان نقول له كن فيكون .

فالمسألة ذات وجهين : الأول ان مثل هذه الملاقاة لايمكنها ان تتم مادام فكرنا قاصراً، وادبنا هزيلاً . والوجه الآخر ان الطريق الى هذه الملاقاة غير معبد أمامنا لأن الفكر الغربي بطبيعة ظروفه التاريخية ورواسبه الماضية مشبع ضد الشرق عامة ، وهو اليوم معبأ ضد العرب بوجه خاص ، ومتعاطف مع الصهيونية الى أبعد مدى . ان الفكر الصهيوني المستغل قد سبقنا الى ملء الفراغ والاستئثار بالساحة ،فاذا الغرب طيع بين يديه مسخر لأطماعه. وكان من جراء ذلك نزول المحنة الكبرى بنا نحن العرب .

اما هذا الغرب الذي سلب شعباً وطنه ليديه الى من لاوطن له ، وأقطع الصهيونية أرض فلسطين قلب الوطن العربي ، وشحن اليها ملايين اليهود ليشردوا أهلها أو يبيدوهم ليقيموا في ديارهم . . هذا الغرب الآثم صاحب الجريمة الكبرى في عدوانه المبدئي واستمرار عدوانه حتى اليوم ، هو نفسه الذي يرفع عقيرته بالصياح في وجه العرب كلما هبوا للدفاع عن كيانهم وينعتهم بأنهم قتلة . اما الغزو الصهيوني واما العدوان الاسرائيلي واما التقتيل والتدمير والتشريد ،فان صدى ذلك كله عنده الهتاف للنصر العادل وارادة الحياة ، ثم لاتلبث هذه المشاعر ان تترجم الى المزيد من المساعدات الضخمة والأسلحة الفتاكة وبالتالي الى مزيد من القرابين العربية على مذبح الحرية .

كل ذلك يعني ان التجاوب مع الفكر الغربي تمهيداً للتأثير فيه يتطلب من ثقافتنا وتفكيرنا وادبنا ان تكون في مستوى رفيع من النضج ، اذ لايمكن ان يقوم ثمة حوار بيننا وبين الآخرين اذا لم نكن أندادا جديرين بأن نحظى بالاصغاء فضلا عن التفهم والعطف .

ان تراخي الأديب العربي لظنه ان عدالة قضيته كافية لكي تفرض نجاحها

بذاتها كان الثغرة التي نفذ الينا منها الفكر المعادي ، اذ ليس المطلوب حين نكتب في صالح قضية إن نقنع انفسنا بل ان نقنع الآخرين . ان اطمئناننا الساذج وشعورنا بأننا نملك مقومات الأمة ، ولنا رصيدحافل من التراث الزاهر، كل ذلك اسلمنا الى الزهو . وهكذا غدا حقنا مسكينا منزويا، وانقلب باطل الصهيونية حقاً نتيجة دأبه واستمرار وجوده وإلحاحه .

واذا كان الأديب الصهيوني مطالباً بتبرير غزوه للعرب وتشريد شعب أو استئصاله وابادته ، أو بكلمة واحدة اذا كان مطالباً بتبرير الباطل، فمن نافلة القول ان نطالب الأديب العربي بل ان يطالب الأديب العربي نفسه بتبرير الحق حق شعبه في الحياة وحقه في التصدي للعدوان، وبمشروعية دفاع العرب ضد الغزو الصهيوني الاستعماري وإصرارهم على أن يعيشوا في بلادهم أحراراً كما كانوا منذ آلاف السنين . لا غنى للأديب العربي أن يؤكد هذه الحقيقة التي يجهلها الغربي أو يتجاهلها،وهي ان صراع العرب ضد الصهيونية حلقة كبيرة من سلسلة نضالهم التاريخي المرير ضد الصليبيين وضد التتار والأتراك والاستعماريين الفرنسيين والانكليز والأمريكيين. . وفي هذا وحده مايؤكد أصالتهم ورغبتهم في الاحتفاظ بكرامتهم والمحافظة على أرضهم .

لقد بات لزاماً علينا أن نقنع الرأي العام عن طريق عرض الحقائق أمامه عارية ، ونريه ماترتكبه الصهيونية في الأرض المقدسة من اهوال ، ونفضح زيف ما تزعمه كتبهم التي تبشر بالسلام وتوهم الناس ان العرب هم الذين أكرهوهم على خوض الحرب، وانهم اذا كانوا يخوضونها فانهم يفعلون ذلك محتفظين بانسانيتهم وترفقهم بالمدن وأهلها، لأنهم دعاة استقرار وأمن، كل مايطمحون اليه أن يزرعوا الأرض بأمان، على حين ان العرب دعاة نهب وتدمير سرعان مايحيلون العمران

الى دمار والخصب الى قفر، فهم لذلك جديرون بالصحراء لأنهم منها ويجب أن يصيروا اليها ... من خلال ذلك كله ينفذ الفكر الصهيوني الى عقول الآخرين موهماً اياهم ان الارض لمن زرعها والبلاد لمن عمرها. ومن هنا يبرز الدور الاصلاحي المزعوم للصهيونية في فلسطين.

هذه النزعة الخيرة المزعومة لدى الفرد اليهودي تتعاظم في الأدب الصهيوني لتجعل من أبناء اسرائيل متسمين بالمثـالية المطلقة. فالبطل اليهودي معصوم كأنبياء التوراة، متفوق كمخلوق الأساطير. ولا ندري كيف يستسيغ الفكر الغربي هذه الخرافة. انها مهمتنا نحن أن نفتح عينيه على الحقيقة ونهتك عنها الغشاوة. انه بحاجة الى من يضع أمامه الحقيقة وهي ان مثل هـذا المخلوق اليهودي الذي صنعته الصهيونية كائن شاذ، لأنه بعيد عن الواقعية ومغاير للطبيعة الانسانية. وان تميز اليهودي وتعاليه وشعوره بالامتياز على سائر الناس واعتقاده بالعصمة.. كل ذلك نابع من النزعة العنصرية تلك النزعة اللاانسانية التي ترتكز الى اعتـقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار.. وقد آن للفكر الغربي أن يدرك ان مثل هـذا الشعور بالاستعلاء ينطوي في حقيقته على استصغار سائر الشعوب والحقد على كل الناس، ولا بد له – كما هو في الواقع – من أن يقود الى العدوان.

وعلى ادبائنا وسائر رجال الفكر والثقافة ان يتوافروا من جهة اخرى على انهاء عهد التكفير عند الغربيين، ويفهموا العالم ان اليهود الذين كسبوا عطف الكثيرين عليهم بسبب اضطهاد النازيين لهم، قد خسروا هويتهم الانسانية عندما اقاموا دولتهم بالعنف على اشلاء شعب آمن، فانقلبوا بـين عشية وضحاها من مضطهَدين الى جلادين، ومن ضحايا الى سفاحين.

ان ذلك المجتمع الغربي المثقل ضميره بشعور الذنب، والمضلل فكره بسموم

الصهيونية لابد له ان يستفيق على قرعنا المستديم لنجعله يفتح في نفسه كوى أخرى؛ فيشعر ايضاً بما يعانيه شعب فلسطين نتيجة عقدة الاضطهاد النازي حتى يكتشف انه مطية الى شرك سيق اليه ، وجعله يمعن في التكفير عن اضطهاد مضى ، ليدأب في تأبيد اضطهاد أشد وأعتى ، وأنه شارك في صنع مأساة انسانية رهيبة جعلت من سيناء وغزة والضفة الغربية خيمة كبيرة للاجئين .

وعلى الصعيد نفسه ، تبرز مهمة الدولة لتتكفل بالباقي ، وتحمل الكلمة أصيلة أو مترجمة الى حيث ينبغي لها أن تكون ، الى ميدان اعتاد الاستئثار به مزيفو الكلمة . فالدولة عندنا مازالت تستبعد الفكر والأدب من دائرة اهتمامها ومجال تخطيطها . الأمر حيوي ومصيري ولا بد فيه من توافر الجهود والطاقات .

تلك صور لابد منها على الطريق الطويل كي يضطلع الأديب العربي بتبعاته التاريخية ، ويتسنى له أن ينقل معركته المصيرية من المحلية الى العالمية .

ولكي يحسن الأديب العربي العطاء ويكون أدبه بالتالي مجدياً ووجوده نفسه مبرراً ، لابد له من أن يقوم ذاته تقويماً جذرياً وأن يقف ملياً قبل أن يتخذ لنفسه منطلقاً جديداً . ان المنطلق الجديد لابد أن يرتكز الى ارادة التغيير ، وذلك بالاقرار بأن الواقع العربي ليس كما ينبغي له أن يكون . على الأديب العربي أن يعترف بهذا الواقع وأن يرفضه ويتمرد عليه معاً . أن تعامي الأديب عن الهاوية ، وصلفه ومكابرته تجاه مرارة الواقع ، وهربه من المواجهة الى التفاخر والتبجح ، وامعانه في السلبية ، ومزايدته في اطلاق المضامين المتطرفة اللامسؤولة دون أي ارتكاز الى رؤية موضوعية للقضية ... كل ذلك أمر مضلل زائف لم نعد نقبله ، بل نعده من أسباب محنتنا .

وان ما كان يصطنعه الأديب العربي من صياح واستغاثة ، وندبة وحسرة ، وتنبيه وتحذير، وسائل كلية لا تجدي اليوم في مواجهة التحدي الصهيوني . فالقضية الفلسطينية قضية ثورية، ولا بد لها أن تعالج في الأدب بروح ثورية .

ولكيلا نقع في التعميم ، لابد لنا في صدد الحكم على موقف الأديب العربي الحديث من أن نعمد الى الفرز والتمييز . فثمة أدباء ، كتاباً وشعراء ، قاموا بدور طليعي في مواكبة حياة أمتهم المتحفزة . وكانوا يصدرون في نتاجهم عن ظروف قاسية عانوا من جرائها كل عنت وإرهاق ، وكانوا يحيون في ظل المنافي والسجون وتحت وطأة تضييق سبل العيش عليهم ، لأنهم احتفظوا للأدب برسالته وللحرف بقدسيته .

وكان الى جانب هؤلاء الأدباء أو كان من بينهم أيضاً آخرون آثروا السلبية ولاذوا بالصمت ، اذ لم يكن ثمة بديل أمامهم سوى التعرض لأساليب القهر . وهؤلاء وأولئك إنما هم ضحايا أزمة الحرية عامة وحرية التعبير خاصة في شرقنا العربي .

وفيما عدا ذلك ، ففي رأيي أن الأديب العربي كان متخلفاً عن الركب من حيث قدر له أن يكون طليعة النضال . وما ذلك إلا لأنه لم يكن خلية حية في جسد قومه ، يتلاحم معهم ويعاني مرارة تجربتهم . ومن هنا كان ارتباطه بالقضية واهياً في أكثر الأحيان . علينا أن نواجه الحقيقة المرة وهي أن أكثر أدبائنا الكبار عاشوا على هامش قضيتنا المصيرية ولم يعيشوا في صميمها ، فلم تلفحهم حرارتها ولم يشعروا بتسارع نبضها . فعندما انفجرت في وجوههم وقفوا مصعوقين وراحوا يقدمون نتاجاً مفتعلاً يفتقر الى التفاعل الحي العميق . وبذلك كانوا في معزل عن دورهم الحقيقي في قيادة الأمة وريادتها الى آفاق التحرر والكرامة .

كانوا في حال من الاسترخاء الفكري والنفسي لم تمكنهم من الاضطلاع بتبعاتهم التاريخية ، ولهذا غدوا منفصمين عن واقع أمتهم وكأنهم غرباء في وطنهم . أما القليل الذي كتبه بعضهم فقد كان في أفضل الأحوال منطوياً على مجرد التعاطف دون وعي أصيل لحقيقة المأساة ومدى عمقها وأبعادها ، أو كان على طريقة الرومانتيكيين في ندب الحظوظ العاثرة ، ورثاء الأرواح الطاهرة ، وبكاء الأيام الغابرة . ذلك الادب كان في كلا الحالين عاجزاً عن أن يبلغ مداه ، ولم يكن عطاء حقيقياً .

أجل ، ان القضية الفلسطينية قضية ثورية ، ولا بد أن تعالج في أدبنا بروح ثورية . وان معركتنا المصيرية المقبلة تقتضي أن يكون لها جذر أدبي يمدها بنسغ منه . ولا بد للاديب العربي ان يكون ثورياً متمرداً وان يكون في مستوى ثقافي وفكري وفني رفيع يؤهله لأن يكون رائداً لقومه يدفع الركب ، ويشد الأزر ، ويغذي طاقة الكفاح ، ويصعد المشاعر ، ويسدد الخطى ، ويعمق الايمان ، ويبشر بالخلاص . ان اديباً عربياً يقف وقومه في معركة المصير لا بد أن يكون صاحب رسالة وأن يكون أدبه أدب رسالة . وان كل رسالة تنطوي على قضية ، وتنبعث من موقف ، وتصدر عن عقيدة .

نريد أدباً مجنداً وفكراً قائداً في مجتمع ناهض من وراء القرون ، يتلمس الطريق الامثل ، وكاد ينسيه طول الهجوع ما كمن فيه من قوة شكيمة وتمرس بالشدائد . ان القلم في يد الأديب أمضى من السيف اذا شحذ على مسن الايمان والاصرار .

لقد صهرت المحنة مشاعر العرب قاطبة وألبتهم على الصهيونية والاستعمار في وحدة شعورية قومية لم يعرف التاريخ الحديث لها مثيلاً . إن الألم في ذاته

علامة الحياة المتوهجة في قلب المأساة . واذا كانت النكسة قد حفرت في نفس كل عربي أخدوداً، فلا بد لهذا الأخدود ان يحدث تغييراً في سلوكه ويقوده الى غد أمثل . وليس كالآلام اذا ماتخمرت في النفوس مايتفجر حقداً مبيداً وسخطاً عارماً . نريد من اديبنا اليوم أن يصعد الألم ويعيش النكسة عذابا ومرارة ليحيلها فناً ورسالة .

أدب المقاومة

في الإنتاج الجزائري

جورج سالم

لئن كان لكل مرحلة من مراحل التاريخ الأدبي طابع يميز ها ، وصفة عامة تسيطر عليها ، فان الأدب الحديث الذي أنتجه العرب ، منذ حوالي قرن ، ليتسم معظمه بأنه أدب مرتبط بالأمة العربية ، يسعى لتوحيدها ، والنهوض بها ، ومناضلة أعدائها والاسهام في مختلف المعارك التي خاضتها والثورات التي اضرمتها سعياً وراء الحرية ، ذلك المطلب الأصيل العميق لكل انسان ، والمعنى الحقيقي لانسانيته .

ولعل أبرز مثال على ذلك وأصدقه وأعمقه في آن يتجلى في الأدب الجزائري سواء ما كتب

معنه بالعربية ، اللغة الأم ، أم بالفرنسية لغـة المستعمر التي فرضها. خلال قرن ونيف على الجزائر ، فما فت ذلك في عضدها ، ولا صرفها عن رفضه والثورة عليه بل زادها تمسكاً بالحرية والاستقلال ، والتعلق بعروبتها ، حتى تكللت بالظفر ثورتها الرائعة الخالدة ، وخلال ذلك اتخذ الأديب في الجزائر الموقف الحقيقي الذي يجب ان يتخذه الأديب الأصيل ، فأسهم في الثورة بقلمه وانتاجه معا الى جانب إخوانه الثائرين في السهول والجبال والقرى والمدن ، فضرب بذلك أسمى مثال يحتذى في موقف الأدب من مناوأة الاستعمار ومناهضة المستعمرين .

واعظم من هذا كله ان الأديب الجزائري لم يتردد قط في أداء هـذا الواجب . ولم يتهيبه بل انطلق في عفوية وأصالة ، دون نقاش او خلاف ، يخوض هذه المعركة العنيفة . يقول الروائي الجزائري الكبير محمد ديب : ان كل قوى الخلق والابداع لكتابنا وفنانينا ، بوقوفها في خدمة اخوانهم المظلومين تجعل من الثقافة سلاحا من اسلحة المعركة ، ولأسباب عديدة ، فاني باعتباري كاتبا ، كان همي الأول ان اضم صوتي الى صوت المجموع منذ اول قصة كتبتها ، والى هـذا المعنى يشير مالك حداد في مقدمة ديوانه (الشقاء في خطر) مخاطبا صديقه الشاعر: اربط قدميك بتراب الجزائر .. التصق به ... اتحد ... فقدماك قدما الجندي، قدما الشاعر الجوال ، قد وجدتا اخيرا قالبها.. وكان من جراء ذلك ان اضطهد المستعمر الادباء والشعراء وطاردهم وشردهم ونفاهم . ولم يتورع عن قتلهم . وما أحمد رضا حوحـو ومولود فرعون اللذان قتلهما الاستعمار الفرنسي ببعيدين عن أذهاننا .

لقد كان من الطبيعي بعد هذا كله ان تتعدد صور المقاومة في الادب الجزائري وان تظهر في كل فن أدبي وان تصبح الموضوع الرئيسي الذي يتناوله الشعراء والكتاب والروائيون جميعاً .

أما الشعراء فقد كانوا السابقين الى دعوة الناس الى الكفاح والتخلص من حياة الأسر والى التعبير عن ارهاصات الثورة التي تختلج في الصدور . فهذا محمد العيد يقول في قصيدة مفصحا عن أماني الشعب في الاستقلال والتحرر :

حضوا العزائم واصدقوا الآمالا	ان الزمان يسجل الاعمـــالا
ياقوم هبوا لاتنام حياتكم	فالعمر ساعات تمر عجالا
الأسر طال بكم فطال عناؤكم	فكوا القيود وحطموا الاغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا	حرية تحميـــه واستقلالا
لا أمن إلا في ظلال مرفرف	حر لنا عال ينير هـــلالا

كما عبروا عن هذه الثورة العنيفة اللاهبة ، وصوروا الابطال المكافحين والاسرى المسجونين ، وكل فئات الشعب التي هبت تقاتل وتستشهد . يقول الشاعر محمد صالح باوية في قصيدته (الثائر) مناديا رفاقه في كل مكان من أرض الجزائر مشيدا بالثأر الذي سينال من اعداء الوطن ، متحدثا عن أمه التي آلت على نفسها ان تدخل غمار المعركة :

يارفاقي في الذرى ، في السجن ، في القبر وفي آلام جوعي .
قهقهة القيد برجلي يارفاقي ، حدقوا ، فالثأر يجتر ضلوعي .
ياجنون الثورة الحمراء يجتاح كياني ومغامرات ربوعي .
أقسمت أمي بقيدي، بجروحي، سوف لاتمسح من عيني دموعي .
أقسمت أن تمسح الرشاش والمدفع والجرح بمنديل دموعي .
أقسمت أن تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم أحقاد الجموع .

وهذا صالح الخرفي يتحدث عن فرنسا ونضال الجزائر ويبين في قصيدته (سلاحنا وسلاحهم) عزيمة الجزائر الصلبة الصامدة امام الجيش الفرنسي بكل

قوته ومعداته ، ويوضح غاية الثورة التي تسعى الى ان يعيش الانسان في وطنه عيشة حرة كريمة شريفة :

ملأت الأرض والأجوا حديدا ... فكان العزم أقوى من حديد
فلسنا في الوغى جدداً فتثني ... عزائمنـــا أساطيل الجنود
ولكن عيشة الاحرار نبغي ... ودون بلوغها نيل الخلود
زحفنا كالأتيّ فكنتِ سدا ... سلي خبر الأتيّ مع السدود

اما مالك حداد الذي يتحرق ألماً لبعده عن أرض الجزائر الثائرة ويتمزق شوقاً اليها حتى ليهتف من أعماق قلبه : « اني اتمزق ضجراً ، كلما تذكرت اني بعيد عن ارض الجزائر » فانه خص شعره ، كل شعره للاسهام في هذه الثورة . هاهو ذا يرسم لنا كيف هب الشعب ثائراً ، وكيف صار الفلاح ، صانع الخبز ، ناسجاً للعلم يجابه تلك الحرب الجائرة .

يا للحلم اللاهب في ارض الجزائر
ان ناسج العلم لن يكن غير صانع القمح ، عندنا ، خاض
الحرب الجائرة التي تذرعت بكل حجج المناطقة لتبرر جريمتها
لقد أرادأن يهزم الشتاء ، فمات في لهيب الصيف .

ونسمعه في قصيدة أخرى يتحدث عن الوطن والملحمة البطولية التي يخوضها ابناؤه غضباً لانتهاك حريتهم وكرامتهم .

لكلمة « وطن » عندنا طعم الاساطير
لقد داعبت يدي قلب أشجار الزيتون
ان مقبض الفأس هو منطلق ملحمتنا
لقد رأيت جدى الذي يحمل اسم « المقراني »

يلقى « مسبحته » جانباً ليتابع بنظراته انطلاق النسور
لـكلمة « وطن » عندنا طعم الغضب

واذا كانت البطولات قد تحولت الى اساطير وسقط الالوف من الابطال شهداء فان على الشاعر ان يخلد هذه الاساطير ويرويها للأجيال ، وهو وحده الذي يستطيع ان يشيد ببطولاتهم ويمجد ذكراهم .

اني التقي بهم من جديد كلما اشتريت جريدة
كانوا اصدقائي
لم يكونوا مجرد كلمات
مجرد أرقام او اسماء
كانوا الأيام الالف والسنين عشر من حياتي
الطعام الذي تقاسمناه
ولفافة الضجر . . .
كانوا يعرفون أطفالي
كانوا رفاقي
ما أكثر ما تحدثت اليهم !
انهم يمضون في المعجزة
والمعجزة تفتح لهم ذراعيها
والآن لـ . . لقد تجسدوا روحاً كبيرة
لقد اصبحوا وطني
لن أرى بعد اليوم رفيقي عامل المنجم
كانت ابتسامته تضيء النظرة المرة في عينيه . . .

لن أرى رفيقي الجزار ..
ولا رفيقي معلم القرية
إني استميحهم عذراً ،
لبقائي بعدهم على قيد الحياة ،
إني أشد يتماً من ليلة بلا قمر

والشاعر الذي حمل روح الأمة ، وكافح معها ، يفكر مثلها بالغـــد ، بالمستقبل المضيء ، ان القتلى هم الذين يرسمون طريق المستقبل ، وان تضحيتهم الجلى ستحمل النصر لابناء الوطن ، ستحمل اليهم الفرح ، الفرح الحقيقي :

وقوفاً أيها الرفاق
فالجبل على صواب
هؤلاء الموتى الذين تظللكم حمايتهم
لهم وحدهم السلطة
لهم وحدهم الحق
بأن يرسموا لنا طريق الحياة
اني واثق من الفرح
سيكون الفرح جزائرياً
فرح هذه القرية التي سيولد فيها أطفال
يذهبون الى المدرسة
يالفرح الغارق في الفرح
كسعادة بكر ...
ستملأ الأعراس والحلوى الربوع

سنكون وقوفاً كلنا

وسيرتاح الجيل ، سيستلم النوم الهنيء

لن تكون المناديل لتجفيف الدموع

ولن يكون النسيج لصنع الأكفان

كذلك استطاع الأدباء عن طريق الفن القصصي والمسرحي ان يسهموا في المقاومة بما انتجوا من آثار استطاعت براقعيتها وصدقها وتصويرها الدقيق أن تلعب دوراً كبيراً هاماً في أدب المقاومة ، ان محمد ديب وكاتب ياسين ومالك حداد ووليد معمري وغيرهم كانوا يشاركون ، فيما كتبوا من قصص وروايات ، في أدب المقاومة ذاك وكانت شخصيات قصصهم تحمل هذه الروح وتشخصها وتجسدها ، فرواية (نجمة) لكاتب ياسين ، على سبيل المثال ، ملحمة عن الجزائر ، تصور بؤسها واستعبادها وتصور يقظتها وتمردها ، نجمة ، الفتاة التي ترمز الى الجزائر ، اياها يحب الناس وحولها ومن اجلها يتخاصمون ، فيها يتصارع السادة والمستعبدون ، وتتصادم عقليات مختلفة متباينة متناقضة . انها « الوطن » الأرض التي عانت من وحشية فرنسا ما لم تعانه أرض تظللها راية مستعمر . . وقد استطاع كاتب ياسين أن يعرض في تضاعيف روايته هذه مأساة الفلاحين الذين تقلصت اراضيهم شيئاً فشيئاً حين انتزعها المستعمرون منهم ، ومأساة البطالة ، مأساة الشبان الذين يقفون امام مكاتب الاستخدام طلباً للعمل ، ثم يتلقون الاهانات والمذلة اذا ما وفقوا الى العثور على عمل .

وقل الأمر نفسه في ثلاثية محمد ديب « الجزائر » (الدار الكبيرة ، والحريق ، والنول) فقد عني فيها اكثر ما عني بتصوير حياة البائسين في وطنه ورصد بدء التفتح القومي والاحساس بالمآسي الاجتماعية التي كان الاستعمار السبب

الرئيسي لها ، ان الجزائر في هذه الرواية تستيقظ وتتهيأ لثورتها الكبيرة . فهناك طلائع الثوار والشرطة التي تلاحقهم ، واجتماع الفلاحين الذين ارهقهم الحكم الاقطاعي وامتص خيراتهم .

ان ابطاله يشعرون في أعماقهم بضرورة الثورة وضرورة تغيير المجتمع ، وتهديم مفاهيمه ، والتخلص ممن ينهبون خيراته فيعيشون الحياة الرضية المترفة نتيجة فقره وجوعه وحرمانه .

أما في رواية (صيف افريقي) فان وصفه للكفاح والثورة يأخذ بعداً أعمق وتتخذ الثورة ، في هذا الكتاب مستويات عدة : الثورة الاجتماعية على العادات والتقاليد والعقلية البائدة ، والثورة على المستعمر وضرب العناصر المتخاذلة الخائنة ، وما وجدناه في رواياته عند بطلها نجده ايضاً في مجموعتيه القصصيتين « في المقهى » و « الطلسم » ، فنحن هنا أمام رجال من ابناء الشعب يعيشون في ظروف قاسية ولكنهم يثورون ويكافحون ويموتون وهم يحملون اسمى المشاعر وأكثرها ثورة وتمرداً ، يقول احد الابطال في قصة الأرض المحرمة :

« سيفعلون ما استطاعوا ولكنهم يخسرون . انهم يعرفون كيف يجرحون ، ولكنهم لا يعرفون تضميد الجراح . كل افعالهم شريرة ولن توجد قوة تحول هذا الشر الى خير وسيلتهمهم هذا الشر ويهلكهم .

ويعمد محمد ديب في مجموعته القصصيه « الطلسم » الى رسم مشاهد من حياة الثوار وصراع الوطنيين مع المستعمرين . ففي قصة « النهاية » مثلاً نجد طلائع وحركات التحرر ، ونرى الفلاحين الذين تركوا عملهم في مزارع الفرنسيين والتحقوا باخوانهم المقاتلين في الجبال . اما في قصة « اختفاء نعيمة » فيصور تحول المواطن العادي الى ثائر ويرسم في قصة « الطلسم » تعذيب ابناء الشعب واستجوابهم بكل ما ينطوي عليه ذلك من عنف وقسوة ووحشية .

وفي هذه الطريق نفسها يسير مولود معمري ولاسيا في روايته (الافيون والعصا) حيث يجسد ابرز مشكلات وطنه ... ففي هذه الرواية يصور لنا قرية جزائرية دمرت بأكملها ابان معركة التحرير ... وخلال ذلك يقدم لنا الابطال الذين يمثلون مختلف فئات الشعب ، والصراع القائم حول التحرير ودور الفنان والدم في احراز النصر الحقيقي .

والى جانب هذا فقد دخلت المرأة ميدان الكفاح بأدبهـــا وانتاجها كما دخلت ميدان المعركة . فهذه آسيا جبار تصور في روايتها « ابناء العالم الجديد » نماذج مختلفـــة من النساء الجزائريات اللواتي يواجهن واقع بلادهن ويتخذن في ذلك مواقف مختلفة .

كما اسهم الأدباء بانتاجهم المسرحي في أدب المقاومة هذا ، ويكفي ان نذكر كاتب ياسين في مسرحيتي « الجثة المطوقة » و« الاجداد يزدادون ضراوة » اللتين تصوران بطريقـــة شعرية اخاذة ، روح التمرد والكفاح لدى ابناء الشعب الجزائري .

* * *

وأخيراً نتساءل ما الخصائص التي تميز ادب المقاومة هذا ؟

قد تكون اولى مزاياه انه أدب ملتزم يشعر الكاتب الذي ينتجه انه مسؤول ، وان مسؤوليته جسيمة ، وان له رسالة حقيقية في قلب المعركة وقد حاول ان يؤدي هذه الرسالة ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وخصلة ثانية تميز هذا الأدب وهي انه أدب يؤمن بالحرية ويقدسها ويعتبرها قيمة سامية مطلقة ، من اجلها يسعى الناس ويكافحون ، ويموتون راضين مغتبطين . ان الحرية هي التي تعطي حياة الانسان معناهـــا وهي التي تبرر موته

واستشهاده ، وحين يفقد الانسان هذه الحرية، فلا معنى لحياته ولا مبرر لوجوده.

ولم يغفل هذا الأدب ان يصور الواقع البائس المؤلم الذي يعيش فيه الناس لا رغبة في دفع الفقر والبؤس والاستغلال عن الانسان وحسب ، بل لأن هـذا الفقر والبؤس وتلك المظالم الاجتماعية التي تتجلى في البطالة والجوع والاقطاع واستغلال العمال مردها الى وجود الاستعمار ونظامه ذاته ، الذي يقوم على ظلم الانسان واستغلاله وسرقته واذلاله . ان الأدب الجزائري يسعى ليكشف عن (اكذوبة العالم) التي فرضت على الشعب الجزائري فخدعته وأذلته : « لقد هبطنا الى الحضيض ولن نستطيع العودة الى انسانيتنا بالطرق العادية ، وسنجبر على قلب العالم بل على اوهابه ... ان شعبنا أهين وسيخرج منه شيء هائل » .

ويتصف أدب الكفاح هـذا بسعيه لتغيير القيم في المجتمع ووضع قيم جديدة له ، فقد فرض الاستعمار خلال اقامته في الجزائر قيمه ؛ وان الثورة اذ تسعى لتحرير الوطن من المستعمر انما تسعى كذلك الى تغيير هذه القيم الفاسدة. لأن الثورة هي تغيير للعالم وانها لتسعى الى تحقيق ذلك : « ان في استطاعتكم شنقي ولكن العالم هو الذي ينبغي ان تغيروه ايها الحمقى . لاتحاولوا ان تعلموني كيف اعيش فقد اكون قادراً بما أنا فيه ان اشرح لكم ذلك في اسهاب ، ولكن فلتمنحوني فرصة الحياة . كيف لاتفهمون ذلك ؟ ادينوني في قسوة ، واصدروا علي حكماً بالموت فذلك خير وأفضل . ان عالمكم يملؤني امتعاضاً والبشر فيه معذبون فاقضوا علينا والا ... والا ... ان اذرعتنا تنمو وتزداد طولاً حتى اذا امتلأت بطوننا بهذا القذى قضينا نحن عليكم » .

ان هناك تغييراً جذرياً في المفاهيم ، وتحرير المجتمع سياسياً سيرافقه لاشك تحرر اجتماعي . فتحرير المرأة مثلا لاينفصل عن التحرر السياسي . وهاهي ذي

المرأة التي ارادت ان تشترك في الثورة قد وجدت نفسها قد تحررت تلقائياً . كذلك فان فكرة الفردية والذاتية والانانية قد ذابت في بوتقة المجموعة .

ان حياة الانسان لم تعد لها قيمة امام حياة الوطن ومستقبله ، فالمرء لايحارب من اجل نفسه ولا من أجل اولاده ، بل يحارب من اجل الجميع حتى الذين لايعرفهم أو الذين لم يولدوا بعد . والموت نفسه الذي يفزع منه الفرد ويخشاه لم يعد فيه مايفزع الناس الثائرين لأنهم بموتهم سيحررون بلادهم . يقول أحد أبطال محمد ديب :

« لست أخشى الموت ، لقد بدت لهم بلادنا طيبة فسلبونا إياها ، ولكن البشرية تتيقظ وتفتح عيونها . . . » .

ويمتاز أدب المقاومة هذا بواقعيته الدقيقة ، فهو ينبع من صميم الأرض الجزائرية ويرتبط بانسانها ويصور مدنها وشوارعها وريفها وجبالها . منه تطالعنا الوجوه الجزائرية بكل ماتحمل من معان وقيم وآلام وآمال .

وهو أخيراً أدب متفائل رغم كل الدماء التي تعبق منه . انه ليقوم على ايمان عميق بالشعب وبالانسان وبمستقبل الانسان وحقه في الحرية والحياة الكريمة يقول أحد الأبطال : أعلم انني سأموت ومع ذلك احس انَّنا أقوياء . ان المحن والكوارث والنوائب لم تستطع ان تخضع الشعب أو تقهره وان الوطن ينهض برغم كل مايلزم به قوياً معززاً كريماً تدعمه شجاعة ابنائه وقوتهم وصمودهم .

وهكذا نرى ان الأديب العربي في الجزائر قد أسهم بأدبه وابداعه في معركة التحرير اسهاماً واسعاً في التهيئة للثورة والسير معها وتصوير واقع بلاده تصويراً دقيقاً واعياً يقوم على ايمان بالشعب والحرية ونادى بالقيم الجديدة التي يتمخض عنها مجتمعه .

مقررات وتوصيات المؤتمر

البيان العام

لمؤتمر الأدباء العرب السادس

المنعقد في القاهرة من ١٦ – ٢١ مارس (آذار) ١٩٦٨

تخوض الأمة العربية معركة مصيرها ووجودها ضد الاستعمار والصهيونية وسائر القوى التي تقف في وجه تحررها وتقدمها .

وما العدوان الصهيوني الامبريالي الآثم الذي تعرض له شعبنا العربي في الخامس من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ وما نجم عنه من اغتصاب اراض عربية اخرى الا حلقة جديدة من سلسلة التآمر الاستعماري الصهيوني على الوطن العربي .

وقد تحتم على الأدباء العرب ان يكونوا مع الطليعة العربية في ادراك أبعاد الأخطار الامبريالية والصهيونية على أمتنا العربية ، وبهذا قاموا بمهمتهم المقدسة في تعرية أعداء العروبة – والصهيونية في طليعة هؤلاء الأعداء – وفي اذكاء روح الكفاح لدى الجماهير العربية والقيام بالدور النضالي الذي تفرضه عليهم هذه المرحلة الراهنة وما تقتضيه ظروف النكسة .

وادراكاً منهم لهذه الوقائع وما رافقها من حرب نفسية يشنها الأعداء على مختلف المستويات وبشتى الوسائل والسبل لاضعاف روح الثورة والمقاومة العربية ، فقد كرسوا لقاءهم في مؤتمر الأدباء العرب السادس الذي عقدوه في القاهرة ، عاصمة العروبة ، لتحديد رسالة الأديب العربي ودوره في الكفاح ضد الأمبريالية والاستعمار والصهيونية ، وابراز المقاومة العربية في بطولاتها وتضحياتها وآدابها ،

وفي اعداد الوسائل والخطط التنظيمية والعملية لتصعيد هذه المقاومة والوصول بها الى أهدافها التحررية الكاملة .

ولما كانت الحركة الصهيونية تمثل عدوانا نابعاً من المنهجية العنصرية التوسعية الفاشية التي تبنتها ، وتمثل خطراً دائماً ومستمراً على الوجود العربي ، وعلى الأمة العربية كلها .

ولما كانت الصهيونية بوصفها جزءاً لا يتجزأ من الاستعمار العالمي ، وبالاضافة الى أهدافها الشريرة الخاصة ، قد جعلت من فلسطين قاعدة لاستعمارها الاستيطاني ونقطة وثوب وانقضاض لتحقيق أهدافها التوسعية في اقامة اسرائيل الكبرى من الفرات الى النيل ، وفي أداء دور القاعدة الاستعمارية والامتداد الامبريالي في الوطن العربي وفي القارتين الآسيوية والافريقية .

وبما أن الحركة الصهيونية تهدد تهديداً مباشراً القيم الحضارية العربية وهي التراث المشترك الذي يجمع ما بين ابناء الأمة العربية .

وبما أن هذه الحضارة تحتوي على عناصر مقاومة يمكن استخدامها بصورة فعالة في مواجهة الحركة الصهيونية وتصلح لأن تكون حافزاً قوياً للانسان العربي .

لهذا كله أصبح من الضروري أن توحد الأمة العربية كلمتها وتحقق وحدتها وتقدمها بمختلف الأساليب والوسائل وتحرر الأرض العربية من الصهيونية والاستعمار .

ولابد من أن تكون القيم الحضارية العربية المنطلق الروحي المشترك لمحاربة أعداء الأمة العربية واذكاء شعور الانتماء الحي الجاد لدى المواطن العربي الى هذه القيم ، لا سيما وأن تأكيد الشخصية العربية المتميزة بأصالتها أمر لابد منه لأمة تواجه خطراً يهدد ذاتها وقيمها الحضارية والروحية .

وإن اجتماع الأدباء العرب في هذا المؤتمر صورة حية من صور التعبير عن الأهداف التي تجمع الأمة العربية عليها .

وعلى هذا فقد انتهى المؤتمر بعد اجتماع لجانه المختصة ومناقشاتها الموضوعات المطروحة للبحث الى جملة من القرارات والتوصيات .

ويعرب المؤتمر عن اعتزازه وتقديره للدور الرائد الذي تقوم به الجمهورية العربية المتحدة في معركة العرب التحررية ، كما يعرب عن شكره وتقديره للجهود التي بذلت لأعداد هذا المؤتمر وانجاحه ولكريم الضيافة التي قوبل بها اعضاء الوفود.

قرارات وتوصيات

بشأن رسالة الأديب العربي في مكافحة الامبريالية والاستعمار الجديد

(١) – توصيات عامة :

١ – يناشد المؤتمر ادباء وشعراء العروبة في أن يعملوا على اذكاء الروح القومية في الجماهير العربية وأن يدفعوها الى تحقيق الوحدة العربية امل الأمة الحقيقي .

٢ – ينبه الكتاب والادباء العرب الى خطورة بقاء القواعد العسكرية الأجنبية في بعض البلاد العربية ويطالبون بوجوب تصفيتها فوراً .

٣ – تأييد الشعب العربي في الجمهورية العربية اليمنية في صموده الذي أبداه دفاعاً عن مكاسب الثورة وتهنئته على الانتصارات الرائعة التي احرزها في كفاحه ضد الاستعمار وقوى التسلل والمرتزقة الاجانب وشجب ارسال المرتزقة الى الجمهورية العربية اليمنية واعتبار ذلك ظاهرة خطيرة تهدد أمن واستقرار هذا البلد العربي .

٤ – يؤيد المؤتمر بجميع قواه الجهود الرامية الى تثبيت عروبة الخليج العربي والبحرين وعمان وفضح المؤامرات الاستعمارية التي تستهدف طمس هويته العربية .

٥ – يحيي المؤتمر الاحرار في كل من عرب المنطقة الجنوبية في إيران « عربستان » واريتريا والصومال الفرنسي ، ويبارك كفاحهم في سبيل حريتهم واستقلالهم .

٦ – يستنكر المؤتمر التفرقة العنصرية اينما كانت ويساند الشعوب الافريقية والآسيوية وخاصة شعوب انجولا وموزمبيق في نضالها المشروع من اجل التحرر والاستقلال ، ويؤيد شعوب امريكا اللاتينية في كفاحها التحرر من السيطرة الامبريالية الامريكية ويفضح الدور الشرير الذي تقوم به الولايات المتحدة الامريكية في قيادة الثورة المضادة ضد الشعوب الحديثة الاستقلال .

٧ – يستنكر المؤتمر العدوان الامريكي البربري على الشعب الفيتنامي ، ويعلن مساندته لهذا الشعب البطل في كفاحه .

٨ – يطالب المؤتمر في أن يتحرر الأديب العربي من الخوف وان يرعى أمانة القلم والكلمة وان يرتفع الى مستوى المعركة المصيرية ويجهر بالرأي الصريح وينقد بشجاعة كل وضع يراه معوقاً للزحف العربي نحو التحرر الكامل .

٩ – توثيق الاتصال بالادباء والمفكرين في بلاد العالم الثالث وترجمة انتاجهم الى اللغة العربية وخاصة ما تصور منه النضال التحرري وجميع أنواع أدب المقاومة .

(ب) توصيات خاصة :

١ – دعوة الكتاب والصحفيين ودور النشر الى التركيز على موضوعات الامبريالية والاستعمار الجديد وعلى تكوين المواطن العربي تكويناً اخلاقياً وقومياً مسئولاً يكفل له الصمود في وجه مختلف الاغراءات التي يستخدمها الاستعمار .

٢ – التصدي بوعي وحذر لجميع الدعوات الفكرية والمذهبية والطائفية والعصبية والاقليمية الرامية الى تشويه المواطن العربي نفسياً وأخلاقياً وقومياً .

٣ – تقوم الأمانة العامة باصدار سلسلة كتب باللغة العربية متعددة الأقلام تكشف حقيقة الأمبريالية والاستعمار الجديد وتترجم الى اللغات المختلفة .

٤ — تقوم المجلات العربية التقدمية باصدار أعداد خاصة عن الامبريالية والاستعمار الجديد تشرح ماهيتها وتفضح اخطارهما .

٥ — الدعوة الى عقد ندوات فكرية في كل بلد عربي والى لقاءات مع الكتاب الأحرار في العالم لفضح مخططات الامبريالية والاستعمار الجديد .

٦ — ترجمة الكتب الاجنبية التي تفضح الامبريالية والاستعمار الجديد والتي تعطف على القضية العربية وتظهر اصالة الفكر العربي وقدرته التامة عبر تاريخه الطويل على رفض كل جسم اجنبي استعماري .

٧ — مكافحة جميع الوسائل والادوات والمؤسسات الثقافية التي تستخدمها الامبريالية والاستعمار الجديد لتشويه الثقافة والشخصية العربية كمنظمة حرية الثقافة العالمية ومجلة حوار اللتين ثبت تمويلهما من قبل دوائر الاستخبارات الغربية وكمؤسسة فرانكلين وسواها من المؤسسات التي يستخدمها الاستعمار لاغراضه والتحقق من اهداف كل مؤسسة ثقافية اجنبية .

٨ — العمل على صبغ التربية والتعليم ، في البلاد العربية ، بالصبغة القومية وتكوين المواطن العربي الجديد الواعي لاخطار الامبريالية والاستعمار .

٩ — مطالبة رجال القلم في البلاد العربية ان يترفعوا عن الابتذال في معالجة الموضوعات القومية والاجتماعية التي تمس مصير الامة والاجيال الناشئة ، وأن تكون الموضوعات التي يعدونها للانتاج السينمائي والتليفزيوني والاذاعي متسمة بالجدية والعمق والصدق .

١٠ — يدعو اتحاد الادباء جميع الحكومات العربية الى ان تتخذ تدابير جذرية لمكافحة الافلام السينمائية والتليفزيونية والمطبوعات الاجنبية التي تعتمد على الإثارات الجنسية الصرفة والقتل للقتل وتصوير اجهزة المخابرات والقوة العسكرية للغرب على انها لاتقهر ، وتقديم صور مشوهة ومغرضة عن شعوب بلاد العالم الثالث .

قرارات وتوصيات

بشأن رسالة الأديب العربي في مكافحة الصهيونية

انسجاماً مع رسالة الاديب العربي في مكافحة الصهيونية ، ودوره في هذا الكفاح ، يقرر المؤتمر السادس للأدباء العرب المنعقد في القاهرة في الفترة من ١٦ الى ٢١ مارس (آذار) القرارات والتوصيات التالية :

١ ـ دعم المقاومة العربية في الارض المحتلة بمختلف السبل المادية والمعنوية وتوفير الطرق والوسائل لتصعيد العمل الفدائي ونشره على أوسع نطاق ممكن ، والدعوة الى تأييده ونصرته ، وازالة العقبات من طريقه .

ويرى المؤتمر ان كل عرقلة للعمل الفدائي او تعطيله ، خروج على إرادة الامة العربية .

٢ ـ يوجه المؤتمر تحيته الصادقة الى اخوتنا في النضال في الارض المحتلة من مناضلين و كتاب وشعراء ، ويقدر لهم كل التقدير الدور البطولي الذي يؤدونه في معركة أمتهم العربية ويناشد الامة العربية كلها ، وأحرار العالم جميعاً ، ان ينصروا حركة المقاومة العربية في فلسطين بجميع صورها وأشكالها ، وأن يقدموا لها كل عون ودعم .

٣ ـ يؤمن المؤتمر ان الوحدة العربيـــة سلاح حاسم في تصفية الوجود الاسرائيلي ، ويدعو الادباء العرب الى توعية الجماهير العربية وتعبئتهـا حول هذا الهدف .

٤ – يدعو المؤتمر الى وحدة أداة النضال والعمل الفدائي العربي بعد أن أصبح هذا التوحيد ضرورة ملحة للارتفاع الى مستوى المعركة ومجابهة العدو بكل ماتحت تصرفه من موارد وطاقات وقدرات .

٥ – يوجه المؤتمر تحيته الى جنود الامة العربية الابطال الذين يرابطون على خطوط النار ، والذين يتأهبون بشرف ورجولة لمعركة التحرير .

كما يوجه المؤتمر تحية الاكبار الى شهداء معاركنا الطويلة والمستمرة مع الاستعمار والصهيونية ، والى كل من ضربوا أمثلة البطولة في تلك المعارك .

٦ – يرى الأدباء أن مسئوليتهم تتركز في توعية الجماهير العربيـــة بالحقيقة الواقعة ، وهي أن اسرائيل تمثل عدواناً دائماً ومستمراً في قلب الوطن العربي ، وأن تحرير الارض العربية كلها ، هو الهدف الذي يجب أن يعمل الأدباء من أجله .

٧ – يرى الأدباء وجوب التمييز بين اليهودية كدين والصهيونية كحركة عدوانية عنصرية فاشية توسعية ، وأن تحرير فلسطين من الكيان الاسرائيلي الذي يجسد الصهيونية والاستعمار ، هو الهدف الذي يقضي على المطامع الصهيونية ويساعد في حل المشكلة اليهودية .

ويذكر الأدباء أن اليهود عاشوا كمواطنين في الوطن العربي في ظل تسامح لم يعرفوه في أية بقعة أخرى من العالم .

٨ – يرى المؤتمر ضرورة عرض الصورة الصحيحة للقضية الفلسطينية ، على الصعيد العالمي ، وبالنسبة الى مختلف الاتجاهات والقوى الدولية ، وأن هدف شعب فلسطين هو تحرير وطنه وعودة أصحابه اليه .

٩ – يرى المؤتمر دعوة الأدباء الى الالتزام بالربط بين قضيـة فلسطين ومناهضة الصهيونية من جهة ، وبين قضايا التحرر العالمي من جهة أخرى .

١٠ – يرى المؤتمر ضرورة التصدي للحرب النفسية الضارية التي يشنها العدو علينا لاضعاف ثقتنا بانفسنا وايماننا بقدراتنا وطاقاتنا ، ومقاومة عمليات التشكيك الواعية واللاواعية التي تتعرض لها أمتنا العربية في جدوى تصميمنا على المضي في معركتنا الى نهايتها الظافرة .

١١ – الحرية شرط أساسي للأديب لكي يمارس دوره الطليعي والطبيعي في مكافحة الصهيونية .

لذا يلتزم المؤتمر بالدفاع عن حرية الأديب في التعبير والاطلاع وتوجيه الجماهير العربية وتوعيتها .

١٢ – يوصي المؤتمر بأن يعمل الأدباء على تجنيد كافة وسائل الاعلام في خدمة القضية الفلسطينية ومكافحة الصهيونية والاستعمار .

١٣ – يرى المؤتمر ضرورة التزام أدباء العرب بالقضية الفلسطينية ومفاهيمها لكي يستخدم كل منهم فنه الأدبي الخاص به في مقاومة الصهيونية ، ولتقديم الفدائي العربي في صورته المشرقة الأصيلة . وفاء بحقه من ناحية ، ودفعاً الى الاقتداء به من ناحية أخرى .

١٤ – دعوة الأدباء العرب الى المشاركة الفعلية في الكفاح الفدائي المسلح ليعكسوا بانتاجهم صورة هذا الكفاح .

١٥ – يرى المؤتمر ضرورة اشاعة فكرة الارتباط بالأرض والأمة وقضايا الانسان في نتاجنا الأدبي .

١٦ – يؤيد المؤتمر فكرة اقامة مؤسسة للدعوة العربية لقضية فلسطين ويناشد الحكومات العربية أن تبادر الى تنفيذ القرار المتعلق باقامة هذه المؤسسة .

١٧ – يرى المؤتمر ضرورة اشاعة نوع من الأدب ، من شأنه أن يخلق في المواطن العربي اينما كان ، الإحساس بخطورة الأمر ، واتخاذ موقف جاد منه في مختلف سبل الحياة ومناشطها ومحاربة الأدب الرخيص اللاهي الذي يخلق في الانسان العربي شعور اللامبالاة والانصراف الى توافه الأمور .

١٨ – الاستفادة من جميع الأسس المشتركة ، ومجالات اللقاء ، فيما بيننا وبين شعوب العالم كله ، للدعوة الى القضية الفلسطينية ، ومقاومة الصهيونية في تلك البلدان .

١٩ – ضرورة قيام اتحاد أدباء العرب ، بالاتصال المنتظم والمنسق مع العرب في الخارج ، المهاجرين منهم ، والمقيمين بحكم العمل ، والطلاب ، لتنظيم محاربة الصهيونية في بلدان العالم الخارجي ، مع الاستفادة بصورة خاصة من أدباء المهجر ، وتنسيق التعاون فيما بيننا وبينهم في مقاومة الصهيونية في البلد الذي يقيمون فيه ، وكذلك الاستفادة من الأساتذة العرب الذين يدرسون في الجامعات الأجنبية لتقديم عرض أكاديمي للقضية العربية في الخارج .

٢٠ – يوصي المؤتمر أن تقوم الاتحادات والجمعيات الأدبية في البلاد العربية بتوعية الجماهير العربية بحقائق القضية الفلسطينية .

٢١ – مع التأكيد على ضرورة بقاء ابناء فلسطين في الأرض المحتلة ، وعدم نزوحهم منها ، ليؤدوا واجبهم المقدس في مقاومة العدو الغاصب ، يوصي المؤتمر الحكومات العربية بالغاء الاجراءات المعقدة التي تعطل تحرك الفلسطينيين في البلاد العربية أسوة بغيرهم من المواطنين العرب .

قرارات وتوصيات

بشأن أدب المقاومة العربي

ان التجربة القاسية التي امتحن بها العالم العربي في يونيو ١٩٦٧ ليست أول تجربة تواجه العرب بموقف يدعوهم الى تعبئة كل مالديهم من قوى مادية ومعنوية .

والحق أن التاريخ الحديث للأمة العربية حافل بمواقف فرضت عليها كثيراً من الخصوم واجتياز كثير من العقبات قد تتعثر أحياناً ولكنها لاتلبث بفضل الطاقات المتجددة المتآزرة أن تعاود مسيرتها لبناء مجتمع عربي قوي موحد يعيش في ظل حياة حرة كريمة

وقد استلزمت هذه المواقف المتصلة أن يلتصق الأدباء العرب بقضايا أمتهم النضالية وأن يشاركوا مشاركة فعالة في تلك المعارك الكثيرة التي خاضتها الأمة العربية في تاريخها الحديث .

والحق أن هذا الأدب في جملته ممكن أن يكون مرآة تعكس هذه الصورة الممتدة بكل ظلالها وأضوائها واحداثها ومسيراتها .

على أنه مهما يكن من أمر تلك التجارب القاسية التي مرت بالأمة العربية، فان المحنة الحاضرة تفوق في جسامتها وعمقها كل تلك التجارب وتستدعي بالضرورة أن تعبأ لها كل ذرة من طاقتنا بأسلوب علمي حضاري جديد متناسب والأساليب التي تجابهنا بها الصهيونية والاستعمار .

وهناك حقيقة هامة في هذا الشأن لابد أن نتدبرها ، هي أن مقياس النجاح في أدب المقاومة لايكون بمقدار ماينتج من هذا الادب ، بقدر مايحدث هذا الادب من أثر في خلق وعي سليم لقضايانا القومية ، وفي تجميع الامةالعربية لقواها المادية والروحية حول هذه القضايا وفي الدعاية البصيرة لها في العالم الخارجي.

فلا بد أن يكون لادب المقاومة عندنا وجهان : وجه يمثل المقاومةالعاجلة لأزمة طارئة تستدعي تعبئة شعورية وفكرية شاملة ، ووجه يمثل كل العقبات التي تقف في طريق النضال العربي والتطور الحضاري للأمة العربية على المدى الطويل . فكل مايبني شخصية الانسان العربي بناء سليما يجعله قادراً على مواجهة الحياة بوعي وحرية ، وكل مايوصل القيم الاخلاقية والاجتماعية الصالحة ويكشف الزيف والانحراف والتخلف والعدوان هو أدب المقاومة بهذا المعنى العام الذي لابد أن يتآزر مع المعنى الخاص لتكمل الصورة الصحيحة لأدب المقاومة .

وعلى ضوء هاتين الحقيقتين تبرز ضرورة تحقق مستوى فني عالي في أدب المقاومة وضرورة الالتقاء بين الجانبين الخاص والعام من هذا الادب .

وعلى هذا يتخذ المؤتمر السادس للأدباء العرب المنعقد بالقاهرة من ١٦–٢١ مارس ١٩٦٨ التوصيات التالية :

(١) توصية الى الجامعة العربية والهيئات الادبية بنشر أدب المقاومة وتوصيله الى جماهير الامة العربية ، وأن تتصل بأجهزة التربية والتعليم في الدول العربية لتضمين نماذج من أدب المقاومة في برامج التعليم والنشاط المدرسي والجامعي.

(٢) في تراثنا القصصي وفي السير الفصيحة والشعبية ألوان مجيدة من البطولات والمقاومة يوصي المؤتمر أن يعنى الادباء باستيحائها واخراجها في ثوب

عصري يربط الماضي بالحاضر ويؤكد تاريخ الامة العربية العريق في الكفاح والمقاومة .

(٣) يتوجه المؤتمر الى أجهزة الاعلام والثقافة في الدول العربية بأن تولي أدب المقاومة مزيداً من العناية مع الحرص على المستوى الفني اللازم .

(٤) يتوجه المؤتمر الى المؤلفين ودور النشر بالعناية بأدب الاطفال والناشئة وتضمينه صوراً جيدة من أدب المقاومة في اخراج مشوق وأسلوب فني جذاب يتناسب مع ميول الاطفال والناشئين .

(٥) يوصي المؤتمر بزيادة العناية بأدب المقاومة في الارض المحتلة من فلسطين وذلك بجمعه ونشره والتعريف بمؤلفيه وما يلقون من اضطهاد وبترجمة مايصلح منه للترجمة .

(٦) اختيار نماذج صالحة ذات مستوى فني عالي من أدب المقاومة في الوطن العربي لترجمتها الى اللغات الاجنبية الحالمة لتصحيح الصورة المضللة التي يرسمها أدب العدو لنا في الخارج ، ولكي تدعو الى قضايانا القومية في اطار وجداني وفكري فعال .

(٧) يناشد المؤتمر الادباء العرب ان يعنوا في ادبهم بالقيم العربية الاصيلة والاخلاق الصالحة ، ويكشف كل مايعوق نمو المجتمع العربي من انحراف او زيف او تخلف او عدوان .

(٨) التوصية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية باعتبارها المظهر البارز للشخصية العربية القومية .

القرارات التنظيمية

يقرر المؤتمر السادس للأدباء العرب ، المنعقد في القاهرة من ١٦ الى ٢١ مارس (آذار) ١٩٦٨ ما يلي :

١ – بشأن مؤتمر الأدباء العرب السابع :

يكون موضوعه « مشكلات الأديب في الوطن العربي » ويعقد في بغداد بدعوة من وفد العراق في موعد يحدد فيما بعد .

– ترسل الدعوات قبل ستة اشهر على الأقل من تاريخ انعقاد المؤتمر ، وترسل الأبحاث المقدمة قبل شهر على الأقل من ذلك التاريخ ، على أن ترسل الى مختلف الوفود المشتركة في المؤتمر .

– يقوم كل اتحاد محلي بعقد مؤتمر محلي قبل انعقاد المؤتمر العام لدراسة موضوع المؤتمر والبحوث المقدمة من الاتحادات المختلفة واعداد مقترحات بشأنها .

– تكون هناك لجنة تنظيمية في كل مؤتمر .

٢ – بشأن الحلقات الدراسية واللقاءات بين المؤتمرين :

ينظم المكتب الدائم لقاءات وندوات لدراسة موضوعات محددة ، على أن يكون اللقاء الاول في صيف هذا العام في بيروت بناء على دعوة وجهها وفد لبنان ، وذلك لبحث مشكلات الكتاب العربي وحقوق المؤلف ، ومتابعة الخطوات التي تمت بشأن اصدار المجلة .

٣ - بشأن الصلات بين الاتحادات المحلية :

- يدرس الاتحاد العام موقف الجمعيات او الهيئات الادبية في البلاد التي لا توجد بها اتحادات ، ويرسل مندوبين لتنشيط قيام الاتحادات المحلية والمعاونة على حل المشكلات التي تقف حائلاً دون تكوين هذه الاتحادات .

- تنظيم الاجتماعات والحلقات الدراسية والمؤتمرات المحدودة بين الاتحادات المحلية بعضها البعض .

- تبادل الدراسات والمعلومات والتقارير بين مختلف الاتحادات المحلية .

٤ - بشأن ميزانية الاتحاد وكيفية تمويله :

- تخصص نسبة ١٪ من ثمن كل كتاب جديد لصالح صندوق الاتحاد .

- يسعى المكتب الدائم لتحصيل الاعانات التي وعدت الجهات المختلفة بدفعها

- يطلب من جامعة الدول العربية دفع جزء من الميزانية المخصصة للاعلام ، لصندوق الاتحاد .

- يطلب من كل اتحاد محلي السعي للحصول على المعونات من الهيئات الشعبية والحكومية .

٥ - تشكيل لجان فنية دائمة لمتابعة الموضوعات الاساسية :

- تشكل لجنة دائمة لتتبع الكتب والمجلات الاجنبية لتحديد موقف الادباء العرب منها ، ويكون من مهمة اللجنة تدعيم الاتصال باللجان الفرعية الدائمة في كل اتحاد لتحقيق التعاون بين جميع الاتحادات ، ويقترح أن تسمى اللجنة « لجنة الاعلام الخارجي » .

٦ – بشأن مجلة الاتحاد :

– تشكل لجنة فوراً لجمع وسائل الاصدار ، تمثل كل الاتحادات المحلية .

– يشترك كل اتحاد محلي بمجموعة من النسخ واعلانات محلية تليق برسالة المجلة ومستواها الثقافي .

– تصدر المجلة خلال عام ١٩٦٨ .

– يكلف مندوب المجلة في كل اتحاد بتأمين اشتراك المؤلفين بمقالاتهم وبحوثهم من حيث المكافآت .

٧ – بشأن نشر الكتاب العربي في البلاد العربية التي تتعرض لضغط ثقافي :

– يتولى كل اتحاد محلي جمع مجموعة كتب من الناشرين لترسل الى مدارس الجزائر باسم وزير التربية والتعليم وتسمى « هدية المليون كتاب – مرسلة من اتحاد الادباء العرب » .

– يدعى الأدباء العرب الى التأليف في موضوعات تخدم القارىء العربي في البلاد التي تتعرض لضغط ثقافي اجنبي كالجزائر والخليج العربي وجنوب السودان .

٨ – بشأن اصدار دليل للادباء العرب :

– يوصي المؤتمر باصدار دليل للادباء العرب .

٩ – بشأن حرية الأديب العربي :

يوصي الاتحاد بالدعوة الى حماية الاديب ورعايته بالنسبة لضمان حريته في التعبير ، ويدافع الاتحاد عنه ضد الاجراءات التعسفية التي قد تتخذ ضده بسبب آرائه ، ويتبنى الاتحاد مطالبة المسؤولين في كل بلد عربي برفع اي قيد مفروض على الاديب ، من جراء معتقداته الخاصة ، كالسجن او سحب جواز السفر او مصادرة المؤلفات او الحرمان من وجوه النشاط في اجهزة الاعلام او التضييق عليه في وسائل العيش التي تضمن كرامته .

زهرة في حقول الموت

شوقي بغدادي

- الجزائر

همْ وأدوا البذرةَ في التُربَهْ
وارتاحوا في صمتِ النكبَهْ
هم سمحوا للأرضِ الخصبَهْ
أن تلفظ قشرتها الصُلبَهْ
كي تنعشَ قلباً مدفوناً
وتفجّر عيناً منصبَّهْ
والآن سيشكو منتصرٌ
أنَّ الاكليلَ قضى نحبَهْ
فالغارُ ذوى

والزرعُ زكا
والتائهُ قد ألفى دربَهْ
لا ، لستُ أدقُّ على طبلِ
وأمثّل دوراً في مَسرحْ
إنّي أحياها أغنيتي
وأشمّ دخاناً في بيتي
الزهر الاسودُ يتفتّحْ
وأريجٌ من لهب يلفحْ
الآن فلسطينُ انتبهتْ
ورمتْ سكّينا لا تجرحْ
بيديها قبل جميع الناس
تدقّ على باب يُفتحْ

* * *

فتفتّت الجرحَ فلسطينُ
وتدفّق قلبٌ مطعونُ
وبحرقة عشاق حُرموا
يتحرّكُ شعبٌ محزونُ
ستكون طريقاً ضيقةً
وتصدُّ هضابٌ ، وحزونُ
وتسيلُ دماءٌ لم تُسفَحْ
وتجدُّ دموعٌ وشؤونُ

ستهبُّ الغابةُ ضاريةً
ويكشّرُ وحشٌ مجنونُ
وتغورُ الأرضُ بمهواها
ويفورُ الحمأ المسنونُ
وتفحُّ أفاعٍ من قلقٍ
ويزمجر رَهباً تنّينُ
ستكون مخاوفُ لاتحصى
ويكونُ عذابٌ ، ويكونُ ..
لكنْ .. مافائدة الدنيا
لو نُكس للأرض جبينُ
أتكون متاعاً لو طفحت
بقذاها صُوَرٌ وعيون

* * *

قودينا !

بيديكِ المقوَدْ
نتخطّى الاعصار الاسودْ
أدرى بالجرح معذّبُه
وبطولِ لياليه المُسهّدْ
يكفيكِ الخشبةُ طافيةً
تترنحُ في أفقٍ مُنسدْ

كلُّ الأيدي تتقاذفها
في صَخَبِ اللجّةِ إلاّ يَدْ
مدّتها من فوق الأيدي
يتبعك الخائفُ ، والمرتدْ
كانت في الغربةِ رحلتنا
والآن نعودُ من الغُربَهْ
وبفأسك يضربُ قلب الصخرِ
يخرّ على وقعِ الضربه
ويفجّر منصاعاً قلبه

الآن يهبّ على الأحزانْ
نسَمٌ من أنسام النسيانْ
أنّ الانسانْ
في وطني أسخى مما كانْ
الآنْ
وأخبارُ الموتى
في كلّ مكانْ
أومنُ بالبذرةِ ميّتةً
كلَّ الايمانْ

هم حفروا الأرض وظنّوها

غابتْ في الحُفرَهْ

لكنْ ألقِ على حقلِ الموتْ

نظره

لابُدّ ستبصر من خلل الأنقاضْ

زهره

ثلاثة وجوه للريح

محمد عمران

١ ــ قبل السفر

كان لنا بيتٌ
من حجر الرضى بناه جَدّي
أذكر ، كان الخبز والزيتُ
طعامَنا ، وورق الورد
ولم نكن نجوعُ
أذكر ، كانت ملحنا الدموعُ
وحينا نصلي

تسافرُ الدموعُ

ويهربُ الموتُ

كان لنا بيتُ

من ورقِ الحبِ كساه جدي

أذكر ، كان الله

ينام في ثيابنا

يأكل من طعامنا

يصحبنا في رحلةِ الموتِ ...

* * *

٣ — السفر

ذات يوم كبرتُ ،

مات على فخذيّ جدي ،

دفنت عينيه في وجهي ،

وأحرقت وجهه ،

ومشيتُ ...

* * *

٣ — الوجه الأول

باحثاً في مدائنِ الجسد الزرقاءِ ،

عن رايتي ، وعن أجنادي

عن خيولي ، أغزو بها شهر زادي :

« في أرضك ، يا امرأة ، أزرع تاريخي
أنصبُ خيمة أقداري
أرحل في سفر الفخذ العاري
يا امرأة الأرض الخضراء
يا امرأة المدن البيضاء
يا امرأة المدن السوداء
يا مدن الأسوار ، ويامدناً ميتة الأسوار »

لم أجد أرض شهرزاد القصيه
أرضها البكر ، مات سيفي ، ونامت
عرباتي ، وما اهتديت إليها .. !!

٤ ــ الوجه الثاني

مبحراً في جزائر الشعر أغزو البدء ،
في البدء كانت الكلمات :

« في عري سريرك يا جسد الشعر
ضاجعت بقايا الكلمات ،
عذارى الكلمات ،
وموتى الكلمات
أنجبت بنين

ولداً أبيض ، بنتاً سوداء »

لم أجد في وجوههم نكهة البدء ،

وفي البدء ماتت الكلمات

. . .

٥ ـ الوجه الثالث

باحثاً في ممالك الوطن الطالع كالضوء ،

عن مسافة وجهي

أكسر الظل والزجاج ، وتمشي

حبة الرمل في دمي ، ويغني

نهر العشب في ضلوعي ، وتصحو

وردة الغار ، ثم يفتح باب

جاهلي ، وتخرج الأرماح :

« في وطن الصهيل

زرعت عوي صوتي

أطلعته أغنية ، سنبلة حبلى

نهراً من الأثمار والأعشاب

حقلاً من الأنهار

ترعاه خيل الفتح قبل الثار »

وفجأة ، اغلق الباب الذي انفتحا

وعادت الخيل والفرسان ، مهزومه

داست حوافرها وجهي ، الذي جرّحا
رجعت أزرع صوتي ، كانتِ الأرضُ
مغزوة الوجه بالبلاب والشوكِ
رأيت وجهي يُدمى . يُستبى ، .. رجعتُ
أرضي الى عقمها ، مزقت أغنيتي
وعدت أحمل تاريخي الذي ذُبحا ..

٦ ـــ العودة

حينما عدت ، لم أجد بيت جدي
« خربةٌ » صار ، مهجعاً للدجاجِ
وشظايا منثورة من سراجي
توتة الدار ، حيث كان مقيلي
يبستْ ، صارت الحواكير « أرعاشاً » ،
ولم يبق مطرحٌ للوردِ !!

المقاومة

صابر فلحوط

- صوفيا

سأحفرُ ، ياجبلَ المستحيل ،
بكفي ... بأجفاني الداميات ...
سأدفعُ ياصخرةَ المستحيلِ ،
بصدري ... بآلامي العاصفات .

- ٢ -

« أبا لهبٍ » جمعُ المشركينَ ،
فثمةَ « بدرٌ » ، حصادُ الجموعْ ...
« أرستمُ » زجَّ الخيولَ العتاقَ ،
وفرسانَها ، المرعباتِ الدروعْ ..
وجيشٌ من الحاقدين الجيوشَ ،

فلا من فرارٍ ولا من رجوعْ !..
ولكنْ ... « سعد » الذي تعرفون !!
إذ « القادسيةُ » نارٌ ولوعْ ،
أتى ... يابحارَ الرمال اعصفي ،
لهيباً ، يفيضُ الدما ... والدموعْ ...

- ٣ -

« هِرَقْلُ » توسّدَ جناحَ النعيم ،
هنا ، والجمِ العاصفاتِ الغضابْ ..
وشيّدَ قصوراً ، وجنّد جيوشاً ،
فصدرُ الشآمِ ، فسيحُ الرحاب ..
ولكنْ .. إذا موجةً عربدت
« بيرموكنا » واستغاث الترابْ !!
وفتّلَ شاربهُ « خـــالدٌ »
وأطلقَ قيدَ الخيول العرابْ ..
فأين قوى الروم ؟ ، أين الدليلُ ؟ ،
على أنهم .. لم يكونوا ، سرابْ ...

- ٤ -

يقولون : جيلُ الشبابِ الفتى
يحاولُ ، أن يصرعَ المستحيلَ !
وأن يفلحَ البحرَ ، يروي الصخور

بسكينه المستهان ، الكليل !!
غزالٌ ، يناطحُ فيلاً ، فيالقاءَ ،
مع النصر ، هلْ من سبيل ؟!
سينطحُ ، ينطحُ ، حتى يملُّ ،
ويسقطَ ..، ياويلتاهُ ، قتيلْ ...!

- ٥ -

أقولُ ، اسمعوا ،
إن جيلَ القدرْ ..
على منكبيه يشيل الوجودْ ...
ضحاياهُ ، جذرُ الحياة العميق ،
وكفاهُ ، صخرُ قلاع الصمودْ
يثور ، فشقي أيادي المنون ،
له الدربَ ، صوبَ الفدى والخلودْ .
أرادَ الكرامةَ مثلَ الضحى ،
فيا مرحباً ... أن يكونَ الشهيدْ

- ٦ -

سأحفر ياجبل المستحيل ...
بكفي .. وأخرقُ ليلَ الفدى
سأدفعُ ياصخرة المستحيل ،
بصدري .. أنا الشعب لبّى الندا
فيا بطلاً في ظلام « الديار »

أحبك ، لا ثمناً للفدى ...

أقلُّ القليلِ الذي تبذلون ،،.

لعينيَّ ، ضحى الانتصار غدا ..

فكلُّ رصاصةِ ثأرٍ هناكَ ...

لها ، في مدى الخافقين ، ، صدى ..

تبدّلُ شيبَ النفوسِ الضعافِ

شباباً ، ، وتستعجلُ « الموعدا » ..

صلوات للمنفى الجديد

عمر أبو سالم
عمان

اعيدي وجهي المبهور للشمس
وضمي راحتي فوق التجمع المرثانيه
وردي عن السفر
اقيمي الريح متراساً .. على بابي
وقولي للعبور . ارتدّ عن اثري
فما عادت بعروقي شهوة تغلي ،
وتبعدني عن الجذر
لتغرس في جبيني نابها الأصفر
وتلعنني .. وتلعن رحلتي الأولى
التي جفت بلا مطر

. . .

مواسم صبحي الاغفاء عند الصحو
وخبزي مذ ولدت تعافه الجوذان
وحين اتيتكم ابتاع سقيا ،
لم اجد قطره
رجوت النصح منكم مرة فرددتمو طلبي
وقلتم دونك الصحراء . . فاقطعها
ولا تبخل عليها . . يا طويل العمر
فمد يديك . . وانصب خيمة للشمس
وألبس صبحك الآتي ثياب العرس

. . .

هجوت موانيء يوماً . . وقلت أعود للأحباب
ولم أحمل معي وعداً الى العشاق
عند الضفة الاخرى
ولم اغلق عليّ الباب
وكم جدلت من ليل الفصول . . نسيج ،
العودة الكبرى
وكم صليت للشمس الخرافية
وذدت بكفي الاشباح عنها وانتجعت القيظ ،
مت على سواقي الموت . . والحسرة
ولم أغسل شباكي في لعاب البحر . . لو مرة

. . . .

لأني لم أمت يوما .. على حجرك
ولم ارقب شراع السندباد على ،
شواطيك .. وفي بحرك
ولم أرسل نشيد الموت والميلاد
لم اطلقه .. في اثرك
سأبدأ رحلتي .. وأعود أمطر في صحاريك
أضيء الليل حولك بالنجوم البكر ،
تلمع في دياجيك
أرطب ريقك الظمآن من ضرعي .. واسقيك
وابسم للتراب .. أعيره نبضي
أذيب محبتي فيك

سيبقى وجهك القمحي .. ويغريني
يشق طريقه في الريح .. مقتربا يناديني
ويختصر المهالك ... والمسافات البدائية
يغامر في الحقول يضيء كل مدائن الليل
وينفض المدى حولي
يلملم خبز أطفالي .. ويدني نحوهم طلبي
يقص على الوجوه .. حكاية التيه
ويسمعها مراثيه ..

• • •

سافتح للرياح الباب أدعوها لموسمنا ..
لتنبت عند موطئه مجيء الخصب ،
تمنحه المواعيدا
لابصر عند وقفتها شموس الارض ،
تتبعني
أمد يديّ في فرح طفولي أعانقها ،
واسبق صهوة الزمن
أحاوره بلهجة عالم وثني
واستسقي ضروع الليل اسأل عن شقوق الصبح
عن وطني

أنقل في صحاراه شفاه الغربة الظمئ ،
ولا اترقب الأمطار .. تغسلني
وأصلب في رؤى العينين اقماراً ربيعية
ولا أترحم الظلمات جوعانا ،
ولا أمتص ثديها
لتغرب عن دمي اصداء هجرتي البدائية
لأطلع من نعاس الأرض بذرتيَ الشتائية

الصّخور

قصة بقلم :

حيدر حيدر

- هذا الطفل لا مبرر لرؤيته هذا العالم !

قلت هذا ونقرت بطن المرأة المنفوخ . أنّت متراجعة بحركة دفاعية ثم لوت رقبتها ألماً : أيها الأحمق ! !

كما قبلت هشاشة الحياة ، قبلت هذه المرأة المولودة من ضلع الثبات الكوني للاشياء .

— سأهاجر . ذلك هو العزاء للذين فقدوا القدرة على الانتحار . وقفزت الى المكتبة . تناولت بعض الكتب وركمتها في الحقيبة، ومن خزانة الثياب اخرجت عشيقتي الزنجية الفارعة . بضربة خافتة عريتها من ثوبها ثم قذفتها في الفضاء فاستلقت على ذراعي . قبلتها بهوس واسندت اخمصها الى كتفي وصوبت من خلال زجاج النافذة : خط التسديد — الشعيرة — قمة قاسيون . طاق . . طاق . ثبي أيتها الأرانب ، وانفري ياديوك الحجل، فعما قريب تبدأ لعبة الفرح والموت .

في غلاف قماشي قديم لففتها ، قمطتها كيلا تتخدش ومددتها بين الثياب داخل الحقيبة : نامي يا عروس الموت هنا .

قالت المرأة التي تزوجتني خطأ : نسيت علب الخرطوش !

كرجت نحو المكتبة ثانية . قتلني فرح. فرح متوهج حملني الى المتحدرات وأنا أحمل علب الخرطوش ، أضمها الى صدري كيلا تنهار . صاح فرح الرحيل : افتحي الحقيبة !

وفي جوفها هيلت صناديق العلب الملونة .

فجأة من مكان ما من النفس شالت أغنية :

داخل حدود المدينة المسيجة بالاسلاك

يحلم السجناء بالهروب والشمس الضاحية .

هناك في المرتفعات الشرقية

قرب مهد الشمس

ينقر السمّان حبات الغار السود .

طيور الحجل فوق الصخور تغني

وتنفض البلل عن اجنحتها .

والصيادون يرتقون المرتفعات

خبياً

والمدينة هنا كهف ،

على بابه عنكبوت ،

وفي المدخل علامة .

الصيادون من سلالات الشمس والآفاق

والعنكبوت ينسج بهدوء ،

والعلامة تقول : هنا مقبرة التاريخ ..

ثم مرت غيمة الحزن . تجاوزت قاسيون نحو اماكن اخرى . اشارت المرأة ان اصطحب المعطف . رددت بفظاظتي التي لا تطاق : اعتن بنفسك ايتها المرأة الوحيدة .

قالت متجاوزة : هل تذكرنا وانت تشوي الأرانب ؟ .

هززت رأسي ، وتثاءبت ابتسامة دخيلة : لا تنسي الوصية ، أجهضيه .

ندبت : أخمن انك لاتنوي العودة أيها المجنون ! !

تمنيت أن أقول : لو كان بودي . غير انني رشقتها ببسمة هزء .

زعق بوق السيارة زغردات ثلاث ، فعاد هبوب الفرح بشيل .

حملت الحقيبة ووثبت : هيه ... وداعاً ! !

— ألن تقبلني ؟

— خذي .. وسفحت شفتيها بقبلة ثأر قديم .

خطفاً رمقت دموعها تنهال فوق وجنتيها : يا للتعيسة ! وكنت مجنوناً بفرح الرحيل عن مدينة الرياح .

ـ السيارة تطوي الطريق ، والرغائب تتيه في النفس كضباب الأودية ،وهو يتسلق السفوح نحو القمم . خلفي الآن تستلقي المدينة التعبة،خرابة مهجورة كساها الغبار وخيوط العنكبوت .

من خلال زجاج السيارة رحت أتصيد انتشائي بالأشياء :

السهول ، الروابي الصغيرة ، السواقي الجافة ، ثم شريط الصخور الممتد على طول الافق الغربي ،بدا و كأن صاعقة قصمته فبان كشاهدة قبر لقاسيون المتأبد.

ستة عشر عاماً من الانتماء لتلك المدينة المهجورة : للبشر ، والاحداث والمستقبل . وسدرتني غفوة حلمت خلالها بأنني طفل يلعب فوق مروج ربيعية ، توجتني الفصول ملكاً ، وقدمت لي حورياتها سلالاً ملأى بالزهر والفرح : وعدتني بشموس لاتغيب وظلال من قمح وحرية وعدل .

ـ يا للأحلام الربيعية !!

لقد استيقظت ، فاراً من برودة الكهوف ، بعيداً عن الخرائب التي هاجمها الحزن والصقور الجبلية الجائعة . أحلام الطفولة سافرت نحو جزر قصية لاوجود لها ، وانا لم أرغب ان اكون ملكاً .

كان الصمت عادلاً داخل قبو السيارة ، احسسته منحة سماوية مع هؤلاء الغرباء في الطريق الطويل . كنت اسرق تأملاتي بروعة الأشياء الجائلة في الخارج ومع نهر الزمن كنت انعطف بحرية في تيه دمنة النفس .

بالصيد حلمت ، وانا أرى الجبال من خلال الزجاج . تصورتها مليئة بالارانب وطيور الحجل وأنا أتسلق وراءها وألهث ، افاجئها فتذعر ، واطلق عليها فتتهاوى على جبهة السفوح الوعرة ، مكسورة الاجنحة ، تتخبط فتلطخ الصخور بالدم ، ثم تركن .

أشعر بالتعب فأستلقي في فيء صخرة سامقة ، وأنام على الارض بوداعة طفل وحيد منهك .

في غفلة الصيد ، فاجأني المطر . راحت قطراته تضرب زجاج الواجهة . خيوط فضية مائلة تشطب الفضاء ، وتوهج في اصيل الشمس . قالت النفس بمودة سرية : لماذا الخيبة تحت سماء تمنح المطر ! ؟

* * *

مذ قرأت اول كلمة في سفر هذا العالم المائج ، دهمني الحزن ، صار التكيف مرفأ مفقوداً . وخلال مسيرة الاعوام الطويلة التي مرّت ، لم استطع تفسير حالة الحلول بين نزوعي الفردي الحاد ، وبين غوصي في نهر البشر . كنت احدس انني سألتقي بمثالي الضائع بين ملايين مفقودي الهوية عبر الاسلاك والاشراك التي نصبت على هذه الأرض ، وغالباً ما رغبت الانسحاب الى طرف قصي ، لكن محاولاتي ..

واليوم ومدينة أحلامي تخور بالعجز ، ما الموقف ؟

الأرض رائحة الحريق ، والشوارع تبدو مقفرة ، ومدينتي التي احببت ، دخانها يسيل الدموع . مدينة مقفلة في وجـــه الرياح ، تمطر خيبات على الصغار امثالي ، وليس سهلاً الجواب : لماذا يشوّه الرجال الحمقى مدينتي الزهرية؟؟

استمر المطر ينشد اغنية الحزن الممتعة . سألت السائق ان يفتح الراديو ، مع اغنية المطر انتشرت غلالة فيروزية بددت صمت المتاهات . قال الحنين : انا اغنية صيف قديم ، هاربة من مزمور داؤود . كلمة مفلتة من نشيد سليمان أتيه وحيدة خلف زمن الانسان .

وتذكرت الفصل الأول من مسرحية حياتي .

في شعاب مدينتي كنت أرى الانسان طفلاً ومارداً .. وهو في حالتيه سيّد التغيرات . وكنت اتساءل : من هم الانبياء ؟

ومن روابي جذور النفس الغضة ، كان الجواب يأتي حاسماً ، ولفترة اقتنعت باسطورة النبوّة . كان مثالي اكبر مني يتطاول طيفاً مبهما يسد نوافذي

وذات يوم حلمت انني صرت بطلاً ، وعندما مشيت امام نهر البشر وسمعت الهتاف والتمجيد ، لمست خيوط التحول الممتد بين حماقة البطل وهشاشة النبي .

ذلك الفصل امتد اعواماً ، علمني اشياء كثيرة لاتنسى . وكان لي فيه اصدقاء وعشيقات وآلام خاصة ، اذ كرمنه حواراً جرى بيني وبين حبيبة احببتها :

ـ هل تأتي الليلة ؟

ـ لاادري

ـ لماذا ؟

ـ ثمة عمل .

ـ بطولي ؟

ـ لا .

بتهكم : خلية اخرى ؟

بغضب : انت امرأة قذرة .

ـ وانت اله أجوف . نملة في صحراء هذا العالم !

ـ أخرسي .

خائبة : سأخرس . لكن انت ستنسحق !

ـ . . . .

وعندما ارتجت الباب خلفي بعنف لئلا اصفعها ، صرخت في رأسي :

ـ قلاع الاحلام الرملية تهدمها الرياح يا طفلي الصغير !!

اثرها سرت في شوارع المدينة ، طوفت حول كعبتي ، و كنت ارتعش من الخوف والوحدة الداخلية .

قلت : اشعر الصقيع في عظامي !؟

قالت المدينة : لاتخف سأحميك . منازلي الزاهية سقف حياتك ،ودثري صوف وطيلسان اخضر .

ـ ارغب بيتاً صغيراً نائياً كواه مفتوحة للشمس والحرية !

قالت المدينة : سيكون لك ماتريد .

ـ اشعر بالوحدة

قالت بحنو دافيء : انا أمك وام الملايين .

ـ المرأة قالت اني ثملة ؟

بزهو : انت ملك الفصول ، من اجلك ولد الزمن والحقل والنجوم . ولأجلك يصنع التاريخ وتميد الأرض بالثورات . .

ـ قالت اني احلم ؟

همست لي : في رحمي ينمو مثالك ويوم الوضع سأقدمه لك على وشاح غيمة . ويومها سيهمي مطر غزير فوق الزرع ، يعمر الأرض زهو ورقص وميجنا وعن الجميع يرحل الليل والدم وبؤس السنوات . وعاد الأمان لي . انهيت طوافي الليلي على الحراس والخلايا . وبحرارة شددت على ايدي اصدقائي الاطفال :

قريبا تتكسر الاصفاد ، وبدل الملح والصبار نأكل خبزاً حاراً من حبوب السهول . نتيه فوق الأرض نبني بيوت البشر وحدائق الحرية

يزهر العدل مع الشمس ومع الزراع تغني في مواسم الحصاد . المجـد للاطفال والمتعبين . طوبى لكم . طوبى للفقراء والتائهين . لجميع الفقراء والمعذبين على هذه الارض .

بذلك هجست في خاطري مدينة الصبوات .

* * *

مازال السيارة تجري ، والمطر ينهمر . تحاول مساحتا الزجاج صدّه لكن القطرات تتمرد والسائق يدخن .

قربي راحت ثرثرات عادية ترمى لازاحة الملل . ورويداً راح الليل يرتمي كرة من هلام أسود والسيارة تشق رحم الظلام ، يهاجر نشيد سليمان الفيروزي فيسدل ستار الفصل الاول .

كان عشقي للمدينـة قد تحول الى نوع من الهوس . نسيت حب الصبية وهجرتها .

وفي الفصل الثاني دربتني المدينة على قتل نزواتي الفردية لأهبها ما تبقى من ثمالة العمر .

كنت أجوس في الدروب الوعرة مبشراً . أتشرد في شتاءات الايام وأنام مع الجياع والمنبوذين . اغري الاطفال بالشموس الوضيئة ، واعدهم بخمر الميلاد والخبز الابيض : ستكون لكم مدينة ملألأة . حقول حنطة مخضرة مد البصر . في قراكم يزهر الحب ، وبيادركم مصونة من الطيور الغريبة ، وفي كل مكان لكم أصدقاء حفاة من نسل الارض التواقة للانفجار . وعلى مدى الآباد ستزدهر الطمأنينة في نفوسكم . السلام والهدوء والمجد لكل طفل . الحب والحرية والقمح لكل انسان .

وفي اخريات طوافي النبوي ، اعود مجهـــداً الى كوخي . أستلقي على الفراش واهجس :

.. هو ذا العمر يمضي ؟

تهمس المدينة : انت رجل خلاّق .

ـ اخاف السراب !!

توسوس : طوبى للمتعبين . طوبى للمبشرين بمدائن الانسان ، بربيع دائم وممالك لن تغرب عنها الشمس والفرح .

ـ أخاف الجرح؟

تهلوس : الفتح قريب . اسراب الجراد سترحل . ستهب الرياح من كل الجهـات وتسقط الحواجز والاسلاك . الفرسان قادمون على خيل صهب والزغاريد ستعمر الكون .

وبين الوسوسة والهمس والهلوسة اغفو . تشرق احلام اقحوان ، وفرحي عرائس جن في هوادج منشورة على مدى الصحارى .

* * *

فصل مدهش .

المدينة تتزيا بأبهى الفرح . وانا مع الاطفال نرقص ونزغرد في عرس امنا . ونشدو : جاء الميلاد . جاء فارس التاريخ والفتح فيا أرض اهزجي .

وتميد الارض . القيامة والنشور . وفي طول الارض وعرضها ترتفع المشاعل ، والدروب ريحان اخضر . بشر كالطوفان نشروا تحت الربيع والمطر ، اكفهم صنوج نحاس ، وحناجرهم رعد سماوات ظامئة تدوي في يوم الحشر .

وفي ليلة شتائية قارسة ، تقدم مفاتيح المدينة لفارس الزمن .

تزف مدينتي في عرس استمر سبعة ايام بلياليها ، لا أحد يأكل ولا يشرب ولا ينام الا الرقص والغناء والزغاريد في عرس مولانا السلطان .

وفي اليوم الثامن يفصل الحراس المليون ، فالمدينـــة الامنة مفتوحة الأبواب ما عادت بحاجة اليهم . يقال للمجهدين استريحوا . فقد انتهت الحرب .

وفي اليوم التاسع انام ثلاث سنوات متواصلة .

* * *

انتهت نشرة الاخبار وخمد المطر قليلاً . اطفأ السائق لفافته ورمى بعقبها من النافذة .

اشعلت لفافة في الصمت الليلي . انعطف الزمن بي ودار . وانهمر حزن كهذا الليل . قالت الكآبة : أنا غجرية سوداء انصب مضاربي قرب الصخور البركانية ، ولان عشيقي غادرني ولم يعد ، اظل انتحب حتى مطلع الفجر .

فصل مفجع .

حكاية بلهاء عن مومس ازمنت الزنا . مات بهاؤها في زحمة الايام السود . امتص الزمن رحيقها فتغضنت . عقيم ليس في رحمها مثال ، نحن لفارس قديم انتهكها وغاب .

ولأن ارضها بوار واعراسها بلا بشر تحاول ان تلملم لقطاءها المفجوعين لينشدوا لها الفرح .

من اين يأتي الفرح بامدينة المجوس ؟

- جميع الاطفال ماتوا في زحمة العرس ، والذين حلموا بالبيوت الشمسية وقمح السهول يسكنون على ضفاف الشوارع ويعجنون الدموع المقهورة .

* * *

في مرفأ الصبية القديمة بث ليلتي . محارباً يعود مكسور الرمح. في شوارع مدينتها تسربت داخل ليل خافت الاضواء . في يدي حقيبتي وفي رأسي شظايا الفصول .

قالت النفس : هنا يقطن شاعر قديم ينسج خيوط أيامه على نول الغربة، يغني خيباته في ضوء القمر ، ربما كان عزاء .

سمعت هدير البحر ، وصياح النورس فوق الخلجان . خبّت الخطوات أكثر غب ّ انسكاب المطر . ولجت زقاقاً معتماً ثم قرعت باباً .

نأح صوت خافت خائف : من هناك ؟

اقتربت الخطوات من الداخل وعاد الصوت يسأل .

تكسر صوتي : القمة !!

وصر مزلاج الباب ثم انشق ونبدأ ونبـــدأ . تسربت حزمة ضوء . اخترقت الحزمة . صرت على ارض الغرفة المضاءة .

امرأة تخطت حدود الثلاثين ، مليحة ، سماتها انثوية ، وفي عينيها حزن وجوع جزائر وحشية لم تكتشف . كانت سامقة ملأت حضوري وفي لحظـــة كالبرق بددت لي جميع احزاني القديمة .

بدت مشدوهة وعلى شفتيها بشائر صرخة . حدّقت بي ، عرّت حارس المدن الدهرية . فجأة تبلج الصمت ، غار في تحولات الزمن وهمس : أنا جسر المعجزات بناني إله العجز والدهشة . امتد من اقمار الحلم حتى رحم الارض العاقر .

وكأم فارقت طفلاً عاقاً انشجت على صدري . همست بفرح نشيجي : احقاً ... أنت ؟

من بين ذراعيها انسلت . ارتميت على الديوان واشعلت لفافة .

– هل استطيع أن ابيت الليلة هنا ؟

رنت نحوي بانكسار عاتب : ما تزال تفتعل الحياد .

قلت بلا مبالاة مفجوعة : لا .. الآن انا محايد حقيقي .

– علمك الزمن ؟

– والمدن الخائنة .

واردفت : انا جائع .

هيأت المرأة عشاء متواضعاً ومن حقيبتي بطحة عرق .

– وبعد الليلة ؟

– الى الجبال .

– ماذا هناك ؟

– صيد .

وعلى المائدة سألتها : لماذا لم تتزوجي ؟

ابتسمت باستخفاف : في الصدر لم تعد ثمة احلام . واشارت الى صدرها .

مضغت لقيمات وشربت بعض الخمر . قالت : ها أنت تعود اخيراً !

– امرأتي حبلى ستضع ولداً .

– كيف هي مدينتك ؟

– لست راغباً بالطفل . مشوه بالوراثة وملوث .

– اما تزال المدينة كيف حياتك ؟

– انت تسخرين .. ها . ها . لكن دمك ملوث انت ايضاً .

– على وجهك وشم المدن المغبرة .

- الاطفال اغبياء وكذلك النساء . وانا ما عاد باستطاعتي أن أحب احداً .

من جديد انسكب الصمت ، وراحت ساعة الطاولة تزيد في ايقاعه . كان صمتاً كئيباً ، وخارج الغرفة تناغمت زخات المطر مع دقات الساعة .

مرة اخرى خيل الي انني اسمع صوت النورس ، يخفق تحت المطر في سماء حزينة نحو مدن خربها طوفان البحر ثم انحسر عنها . هنـــاك يبني النورس اعشاشه ويضع بيوضه . قالت النفس : الجبال بعيدة لا يعلها الطوفان ، والصيد حصاد بقايا الروعات التي افلت .

دقت الخمرة الابواب الموصدة ، ثم فتحتها للريح ؛ صارت النفس سفينة منشورة الأشرعة تعبر جزائر الفرح ولم يكن لهـــا جبة . غطاني الحزن بعباءة شفافة ، ثم ابحر بي ، وارتميت في حضن المرأة انشج .

ها أنذا اعانق عفوية العالم القفر ، جميع المدن توارت من الذهن . وأنا اتطهر فوق هذا التراب المجبول بالمطر . اطير في الهواء واغني ، منحدراً في سفوح البراري بين الغابات ، واثباً كأرنب بري هارب .

في السماء يتكاثف الغيم ،يستر وجه الشمس ، وعلى الارض ترتمي ظلال كئيبة تنفرش فوق الصخور والنفس .

يهطل مطر خفيف ، ثم يشق صدر السماء خيط متلو كالجرح ، يعقبه هدير تخنع له الارض ، فأشعر انني في موكب القيامة .

تحت المطر والقصف اسير محتمياً بالأشجار العارية ، بأجم السنديان

ويعنف المطر ، اركض الى كتف الصخور ، تغزو سمعي أصوات الحجل والمها تسفّ فوق المنحدرات فاردة اجنحتها الرمادية باتجاه الادغال .

يطردني وكف الصخور ، فأنسل تحت الخيوط الرائعة مخوّضاً في مروج النعص والشوك . الفرح الوليد ينمو ويتعاظم نمو المطر . وأتبلل . تعب وصقيع يتسللان نحو لحمي العاري وتبدأ اولى الرعشات .

اصعد الجبل . ليس ثمـــة دروب سالكة ، واحاول الاحتماء تحت ضلع صخرة مقوّسة ، اتقوس على نفسي والتحم اكثر بجسد الصخرة لتحميني .

ويهجم الليل . ليل موحش فوق ارض مقفرة ، مزروعة بالتوقعات والفرح الخائف .

صمت .. صمت . صمت يودي الى صمت . حتى ايقاع المطر تحوّل الى نذير وحشي ، الى ايقاع موسيقي يوحي بالغربة والتوحد . هذا الصمت الكبير الممتد حتى منافذ الأفق هو الرعب الحقيقي .

احاول ان اشعل لفافة ، لكن الثقاب مبلل فأمضغ السيكارة بلذة مرّة . يزداد تسكاب المطر ، فأشعر بالسفينـــة مهددة في هذا الطوفان الجديد .

تزداد الرعشة واحس انني على ابواب التصلب . احرك اصابع يدي وقدمي داخل الجزمة خوف التشنج ، اغرس اسناني في شفتي السفلى ، ثم اثب خطوة الى الامام : لم تمت بعد .

اتناول البندقية المركوزة على ضلع الصخرة ، وادخل نطاقهـــا حول

رقبتي فتصير متصالبـــة مع الظهر ، ويصرخ الالم في مجموع جسدي لكن النفس ...

انحدرت . شيئاً صغيراً يتحرك في ليل موحش بحثاً عن ضوء . فوق مروج النمص النائئة المصقولة كسطح من جليد ، رحت انزحلق زاحفاً كحيوان نحو الوديان عبر الظلام الشاسع .

وتسامق الظلام ، صار غولاً غيبني في جوفه . كنت ما ازال أدبّ متئداً كدودة فوق مروج النمص خوف السقوط في الهاوية السحيقة .

فجأة أنزلق ، أسقط على ظهري ، تنجر يداي بحثاً عن شيء تعلقان به ، فتنسحبان فوق الحصى الناتيء والشوك . ويتمزق جلد راحتيها فأشعر بحرارة الجرح والألم وانا أمسك جذع ريحانة صغيرة . انتهت مروج النمص الملساء ، وبدأت اتوكأ فوق أرض محصبة في السفح ، هاوياً باتجاه ضوء لمحته ، ثم اصدى الصمت مرة اخرى .

خف هطول المطر ، لكن ظلاماً أعمق من ظلام المحيطات كان ينهض امامي . ارتطمت قدمي بصخرة فالتففت حولها في شعب ضيق ، صدمت ركبتي صخرات صغيرات مسننات فغيرت اتجاهي .

وقفت قليلاً ثم حدّقت في بحر الظلام المخيف .

على مدّ البصر اشباح كالحة كالتماسيح تقوم في وجهي . تجاوزت قسماً منها ، لكنها كانت تتوالد من ارحام بعضهـــا البعض صانعة سداً وحشياً لايقهر ...

منذ لحظات انتهى الصيد ، وحرب النمص والزحف ، وهاهي حرب اخرى تقوم .

انا وحدي بين هذه الضلوع الصلبة البدائية احاول انقاذ جلدي ، اشباح تسد المنافذ ، بمتطية صهوة هذا الليل وحماقتها ، سيدة البراري ، تضرب في اعماق الارض لتمتص خصوبة التراب وتمنع الجذور من التغلغل ، هاهي تتواثب كفيلة مهتاجة تبغي لحم فريسة صغيرة لتصنع من دمهــا تاجاً يذكر بالسطوة واستمرار النوع .

« لن تموت لأنك وحيد »

واشعر انها حربي وانني عدو . فرغ ذهني من المعادلات . قد تطول المسافة ، قد تطول الحرب . ربما يفقد الزمن قيمته مع هذه الوحوش القائمة في ارض الغابات البكر ، غير انك لن تموت بطريقة تلقائية . لاتود ان تبني شيئاً فيما بعد ولن تحلم بعد اليوم بدن ومروج واطفال بله ، مايهمك ان تحتفظ بطهرانيتك ، بتمردك الخاص خارج هذا الجحيم المتلف .

هنا في هذا الغاب تنبت هذه الصخور بتلقائية مريعة ، تتوتد في مملكة الانسان لأنها الأقوى ، وهي ليست اكثر من صخور مجوفة وعقيمة ، نبتت في غياب الصيادين والزراع ، لكنها لن تستطيع قتلك .

ركضت بينها فصدمتني . طعنتني في صدري فسقطت فوق بندقيتي المعلقة على ظهري . ركضت اكثر فشجت رأسي وجبهتي . على جدارها سال دمي وقرأت فوق شواهدها حياتي التي تسقط وحياة أحبتي . تجاوزت قسماً منهــا فانفغرت بوحشية اعظم ولؤم ، امسكت بالصدر التمساحي الخشن : ايها الجلد الأبله الغاصب . انني اكرهك !! باصرار حاولت اجتيازهـا فطعنتني ايضاً . حاولت تسلق صخرة كبيرة فوقعت على وجهي ، وشعرت شيئاً في جسدي

يتكسر . نهضت والحمى تتوامح في جسدي ، ومن يأسي حفزت قوة وثب رمتني على سطح صخرة .

حشوت بندقيتي وصحت بوحشية انسان يرفض الموت : خذي ... ورحت اطلق : خذي ايضاً .

وبجنون راح صوت الطلقات يدوي . رددت صداه الاودية والنفس المهتاجة . كنت انعتق .

* * *

في الصباح كنت ما ازال مصدوعاً والمخدة مبللة ، وفي الفراش لايوجد اثر لامرأة .

كان ريقي جافاً وفي معدتي جشأ زئبقي ، وجسدي ثقيـــل ومنهك . تحاملت لأفتح النافذة ، فجاءتني عصابة بيضاء تلف يدي ، واذ نظرت في المرآة لمحت وجهاً غريباً مشطوباً وعينان قد تورمتا .

بهدوء لممت امتعتي المبعثرة . على الارض شظايا زجاجيـــة والساعة مطروحة على وجهها تدق بخفوت مسموع .

ولأول مرة ، رأيت الغرفة تدور كأنها الارض ، ولمحت صور الاشياء تنفتل بسرعة : السرير ، ولوحة الجدار سفينة كبيرة بنية تتأود وتميل بصواريها وسط لجّ هائج ، الديوان الزهري والمنضدة الصغيرة المحفورة السطح عاوية وسط الغرفة ، ثم انا هذه الموجة المنكسرة على صخور الشواطىء .

آه تلك الام تزغرد وتبكي في مواسم الصيد ، تنتظر عودة الفارس المهاجر ، وفي يدها باقة حبق ، تطرش البيت بالحوّار وتنفض الغبار عن صورة ابنها المعلقة على صدر الجدار ، اقول لها فيا مضى :

ـ لماذا الحزن؟ نحن في المدن يا أماه نبني مجد الزمن ونهيء الحرية والفرح لجميع اطفال العالم .

فتغرغر بدمعتها : انت مجدي يا بني . لكن ارادة الله معكم !

الآن انا تحت الشمس ، اسير محايداً بين الماضي والحاضر بلا زمن، فوق ارض تنذر بالانفجار .

كتاب المعرفة

حرب العصابات

تأليف : اللواء مصطفى طلاس

عرض ونقد : هيثم كيلاني

« لا يهمني متى وأين سأموت ، لكن يهمني أن يبقى الثوار منتصبين ، يملؤون الأرض ضجيجاً ، كيلا ينام العالم بكل ثقله فوق أجساد البائسين والفقراء المظلومين » . هكذا افتتح اللواء مصطفى طلاس كتابه[1] بهذه الكلمة للثائر العالمي غيفارا . ولذا فقد أهدى الكتاب اليه ، لأن غيفارا « عرف كيف يظل ثورياً مخلصاً للمعذبين الذين ثار من أجلهم ، بعد أن صار بامكانه أن لا يكون كذلك .. »

ويتساءل المؤلف في مقدمة الكتاب : لماذا تشن حرب العصابات ؟ ، ويجيب عن تساؤله بسببين

أولهما : انهيار الجبهة ، وتوغل قوات العدو في أرض الوطن ، بشكل يصبح فيه القتال الكلاسيكي بواسطة القوات النظامية نوعاً من العبث لا طائل فيه .

وثانيهما : شعور فئة من الناس يشكلون الطليعة الرائدة في أمة خاضعة للاستعمار القديم أو الحديث ، ومحكومة من قبل المستعمرين أو من يمثلونهم من الرجعيين المحليين ، بأن الوقت حان لاعلان الكفاح المسلح للقضاء على الأوضاع الفاسدة وتحرير أرض الوطن .

وقد أخرج المؤلف كتابه الى الناس لشعوره « بأن هذا النوع من الحروب – أي حرب العصابات – يتناسب مع امكاناتنا المحدودة ، وطبيعة المرحلة الراهنة التي تمر بها الأمة العربية اليوم » ، وبضرورة الاسهام في سد الفراغ الحاصل في المكتبة العربية حول هذه الموضوعات وبخاصة بعد أن غدت حرب التحرير الشعبية العمود الفقري الذي يجب أن تبنى عليه استراتيجية الكفاح المسلح بالنسبة للشعب العربي .

خصص المؤلف الفصل الأول من كتابه ، لتحليل الأسباب والدوافع لخوض حرب العصابات في الوطن العربي .

---

(١) الطبعة الثانية من الكتاب – ٥٧٦ صفحة – مطابع الاديب – ١٩٦٨ – دمشق

ندرس الظروف الموضوعية الراهنة ، من حيث موقع الوطن العربي واهميته الاستراتيجية ، وثرواته الغنية الكبيرة ، وحقيقة المرحلة التاريخية التي يمر بها اليوم ، ومن حيث مكانة هذا الوطن في جغرافية العالم السياسية الحديثة ، على إثر النجاحات الأولية التي حققتها الاستراتيجية الاستعمارية الشاملة في اجهاض بعض الحركات التحررية والانظمة التقدمية في مناطق مختلفة من العالم ، واستبدالها بأنظمة رجعية أو عسكرية عميلة .

لقد استخدم الاستعمار خلال المرحلة الماضية جميع أساليب الضغط والتآمر للقضاء على قوى الثورة العربية ، ثم لجأ الى أسلوب التدخل المسلح السافر ، كما حدث إبان ثورة تموز في العراق ، والعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، وعدوان حزيران ١٩٦٧ .

واذا ما ألقينا الضوء على الاسباب التي أدت بالوطن العربي الى الوصول الى الحالة المؤلمة التي يعيشها اليوم بعد النكسة الاخيرة ، فاننا نلاحظ الوقائع التالية :

– ان السبب الرئيسي في ذلك كله ، هو واقع التجزئة .

– ان المواجهة الجماهيرية لظروف النكسة وما بعدها لم تكن في مستوى التحديات العدوانية برغم التضحية والصمود . ويرجع هذا الى عدم وجود استراتيجية موحدة ومشتركة تلتزم بها القوى الثورية العربية وتعتمد الجماهير المنظمة قاعدة للنضال .

– كان للمعارك الجانبية التي قامت بين القوى التقدمية خلال المرحلة الماضية نتائج سلبية ، كان أبرزها هدر طاقات الجماهير العربية وتفتيت جبهتها ، مما أدى الى تسرب اليأس الى قطاعات واسعة من الجماهير .

– التقصير الكبير في توضيح قضايانا العادلة للرأي العام العالمي ، وفي اعداد المواطنين العرب واطلاعهم على حقيقة القوى التي تدعم العدوان الصهيوني ليكون الاستعداد على مستوى التحديات ولتكون المجابهة شاملة ضد تلك القوى جميعها .

- الانحسار المؤقت للمد التقدمي في العالم الثالث ، وضعف دور دول عدم الانحياز والمنظمات الاقليمية الاخرى .

واذا ما استعرضنا بعد ذلك التطورات التي حدثت بعد العدوان على الصعيدين الدولي والعربي ، بدءاً من انعقاد منظمة الامم المتحدة الى اجتماعات المسؤولين العرب ، تبين لنا ان هذه الاجتماعات والزيارات واللقاءات ، لم تستطع الوصول الى برنامج عمل موحد يكفل استخدام الطاقات العربية في المعركة المصيرية المشتركة . وازاء هذه الحال ، نتساءل : ما العمل؟ واين الطريق ؟ ... ان الاصرار على الخط الثوري هو الطريق الصحيح الذي تنتظم فيه ارادة الكفاح الجماهيري لانتصار الشعب العربي على العدوان ومؤامرات الاستعمار والصهيونية ولتجاوز واقع التخلف والتجزئة .

ومن هذه النقطة بالذات ، أي من ضرورة وضع الشعب العربي أمام مسؤولياته ومصيره ، ينبع المسوغ الاساسي لمبدأ حرب التحرير الشعبية . لان غياب الشعب العربي عن ساحة المعركة كان يفسح المجال دائماً للنكسات والهزائم . وليس هناك من صيغة حاسمة يمكن أن تعيد الى الشعب ثقته بنفسه ، وتنمي فيه ارادة الصمود والتحدي ، وتضعه في ساحة المعركة ، سوى صيغة حرب التحرير الشعبية .

وستواجه القوات العربية في معركتها التحريرية ، عدواً أحسن تدريب جيشه ، وسلح شعبه ، وبنى مستعمراته لتكون قلاعاً دفاعية . إلا أن استمرار المعركة وفق استراتيجية حرب التحرير الشعبية سيؤدي لامحالة الى كسر شوكة الغزاة وانسحاب القوات المعتدية . ونحن على يقين أن العدو ، حينما يشعر أن مقاومته قد أوشكت على الانهيار ، وان القوات العربية النظامية والشعبية أصبحت تشكل خطراً على وجوده ، فانه سيطلب ولاشك مساعدة الاسطول السادس الاميركي ، ومساعدة القواعد العسكرية الاستعمارية

الموجودة في المنطقة . وهذا يستدعي زج جميع قوى الشعب العربي في المعركة ، وتجنيد الفلسطينيين في الارض المحتلة ، وارسال الفدائيين العرب لضرب الخطوط الخلفية للعدو وشل مواصلاته واشاعة الرعب في صفوفه .

وينتصب الى جانب التحـــدي الاسرائيلي الاستعماري المصيري ، تحدي التجزئة والتخلف وتحدي السيطرة على الارض العربية وثرواتها وبخاصة النفطية.

ومن الضروري اجراء حساب دقيق لهذه العوامل عند التخطيط لحرب التحرير الشعبيــــة . اذ ان قصور معركة تحرير فلسطين بمعزل عن هذه العوامل امر ممكن، سوى ان هذه العوامل ستلعب ولا شك دورها الحاسم في المعركة مع الصهاينة . وعند ذلك سيمتد نطاق المعركة ليشمل منابع البترول ومناطق السيطرة الاجنبية والممرات البحرية فتتسع جبهة الحرب الشعبية وتتسع اهدافها ، اذ ان احتمال اتساع ساحـــة المعركة ودخول قوى استعمارية من خارج المنطقة اليها هو احتمال قوي ان لم نقل انه مؤكد ، اما الرد على هذا كله فلن يكون بالجيوش النظاميـة وحدها، وانما سيكون عن طريق الجيوش الشعبية أيضاً .

واذا ما خاضت هذه الجيوش المعركة على اساس انها معركة تحرر شعبية ، فان هناك احتمالاً كبيراً في ان تتفتح امامنا السبل الى الرأي العام العالمي ، كي تعود الصورة الحقيقية الى اذهان الناس ، بدلاً من الصورة الحالية المزيفة ، حيث تلتصق تهمة العدوان بالعربي المعتدى عليـه ، وتبدو اسرائيل فيها بمظهر الحمل الوديع. سوى ان هـــذا الامر ليس سهلا كما قد توحي به هذه السطور العجلى . واذا لم توضـع استراتيجية اعلاميـة ، تتصف بالوضوح والصبر والمثابرة بلا كلل ، فان دعايتنـا – حتى في حـالة حرب التحرير الشعبية – تظل عرضه للانحسار والانهزام، بـل لاعطاء مردود معاكس للأهداف المنشودة ، كما وقـع في السنوات الأولى.

التي اعقبت النكبة ، وكما حصل على اثر عدوان حزيران .

• • •

وينطلق المؤلف بعد ذلك في تقديم لمحة تاريخية عن تطور حرب العصابات فيبدأ بالمقاومة الاسبانية للغزو الفرنسي بقيادة نابليون في مطلع القرن التاسع عشر ويحلل اسباب المقاومة في تلك الفترة التاريخية الهامة التي تميزت بحروب الغزو النابليوني. ثم يحلل رأي المفكر الاستراتيجي الالماني كلوزوتيز في حرب العصابات . ثم ينتقل الى القرن العشرين، حيث اصبحت حرب العصابات الطريقة الوحيدة لتحرير الشعوب ودفاعها عن اوطانها ، كما اثبتت جدواها في مسارح العمليات اثناء الحرب العالمية الأولى . ونشأ في هذه الفترة عدة قواد لحرب العصابات ، كتبوا آراءهم وتجاربهم . ونذكر منهم المغامر البريطاني في الأرض العربية لورنس الذي نظم عمليات الانصار العرب ضد الحكم التركي في الحرب العالمية الأولى ، والاستراتيجي العسكري البريطاني ليدل هارت .

وخص المؤلف النظرية الشيوعية في حرب العصابات بفصل طويل ، تحدث فيه عن نشوء وتكون هذه النظرية وتطورها . وابتدأ بكارل ماركس وفردريك انجلز اللذين اعتبرا حرب العصابات غير النظامية هي الحل المنطقي، اذ كيف يتسنى لقوة ضعيفة ان تتغلب على قوة كبيرة دون ان تستخدم اسلوب حرب التحرير الشعبية . ثم جاء لينين من بعدهما، فاغنى النظرية بالتطبيق، وتوسع في دراسة تكتيك التغلغل والتخريب ، وتطرق لمبادىء العمليات الاساسية في حرب العصابات . وعندما يصف لينين التحول في طبيعة الثورة الروسية ، يطرح مبدأ النزاع الثوري البطيء ، ويحث الحزب على خلق المنظمات المناسبة لقيادة الجماهير في الاوقات العصيبة التي يستغرقها هذا النزاع ، الطويل المدى . وهنا يرى لينين ان دور حرب التحرير الشعبية في هذا

النزاع ثانوي وجزء عضوي من العملية الثورية الكاملة . ان هـــذا التحديد ، بالاضافة الى الاهداف البسيطة التي وضعها لينين لحرب التحرير الشعبية ، قد عدل تعديلاً اساسياً من قبل القادة الشيوعيين بعد وفاة لينين .

وحينما جاء ستالين وهو نزري مختوف ، نشر نظريته في حرب العصابات تحت عنوان « الدليل الحزبي الروسي لعام ١٩٣٣ » ، وتلاهـــا بنظرية جـــديدة إثر الغزو الالماني للاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية . وتقول هـذه النظرية ان على العصابات ان تؤدي رسالتين مختلفتين ولكنها متكاملتان :

– فعلى رجال العصابات ان يضايقوا قوات الاحتلال ، وان ينزلوا بخطوط المواصلات والتموين اكبر ضرر ممكن. وهذه رسالة عسكرية اقتصادية .

– وعليهم ، في المناطق المحتلة ، ان يحافظوا على ولاء الشعب للاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي . وهذه رسالة سياسية نفسية .

واذا ما تابعنا تجوالنا في ميدان النظرية الشيوعية . فاننا نجد ماوتسي تونغ يترك اكبر الأثر ، اذ انه اوصل هـذه النظرية الى الكمال ووضع ابعادها الحديثة . وتتميز مؤلفـــات ماو بأنها تعكس التأثيرات التي تركها مختلف المفكرين والثائرين في مجال الحرب الشعبية ، كما تعكس نتائج التجارب العملية لحرب التحرير الشعبية في الصـــين (١٩٢٦ – ١٩٤٩) .

ويتمثـــل تأثير ماو على النظرية الشيوعية لحرب العصابات في ثـــلاثة مجالات هي : المجال الفلسفي النظري ، والستراتيجية والتكتيك . ويسيطر على نظريته مبدأ « الوقت ضد المساحة » . اذ ان ماو يقبل بتبادل الوقت مع المساحة ويضع الوقت فوق كل شيء ، ويعتبره غذاء للثائرين ، اذ يمكن ، من خلال الوقت ، تنظيم الجماهير لتكون قاعدة مادية صلبة لرفد القوى الثورية النامية حتى تصل اخـــيراً الى المستوى الذي

تستطيع عنده ان تشكل من وحداتها جيشاً لتحرير الوطني يتولى سحق القوات الرجعية والاستعمارية المعادية . .

ويحدد ماو ثلاث مراحل يمر بها هذا النمو . فالمرحلة الاولى هي الدفاع الستراتيجي، والثانية هي مرحلة الركود، حيث يظل بقاء العصابات هو الهدف الاسامي ، وتكتفي بضربات سريعة يتلوها انسحاب سريع . أما المرحلة الثالثة فهي الهجوم الستراتيجي . وقد حدد ماو المبادىء الستراتيجية لحفظ القوات الثائرة وتطويرها وتدمير القوات المعادية خلال المراحل الثلاثة للثورة.

وبعد ماو ، يجيء الجنرال جياب وزير الدفاع في فيتنام الديموقراطية والذي قاد الحرب الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي في الهند الصينية بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٦ – ١٩٥٤) . وقد اعتمد جياب في معظم آرائه على افكار ماوتسي تونغ ، واضاف اليها خبرته وتجاربه في حرب التحرير التي لايزال يقودها ضد الاحتلال الاميركي في فيتنام . وقد آمن جياب بان حرب التحرير الشعبية قاسية وطويلة الأمد ، وبان جميع التصورات والاعمال الهادفة الى احراز نصر سريع انما هي تصورات واعمال خاطئة . اذ لا بد من التمسك بستراتيجية المقاومة الطويلة الأمد ، واحراز آلاف من الانتصارات الصغيرة لتحويلها الى نصر كبير . وبذلك نغير ، بالتدريج ، ميزان القوى عن طريق تحويل ضعفنا الى قوة ، بغية احراز النصر النهائي . ولقد اثبتت حرب التحرير الشعبية ، وجهة النظر العسكرية ، ان جيشاً شعبياً غير مسلح بصورة جيدة ولكنه يقاتل في سبيل قضية عادلة ، قادر على ان يجمع كافة العناصر والعوامل اللازمة للانتصار على جيش حديث ، وذلك باتباع الستراتيجية والتكتيك المناسبين .

وحدد جياب المراحل التي تنطوي عليها الحرب الثورية الطويلة بثلاث هي مراحل النضال والتعادل والهجوم

الحرب المتحركة ، واخذت تمثل مركزاً هاماً في تكتيك حرب التحرير الشعبية.

وكانت قيادة الجيش الشعبي تلقن وحداتها ان عليها ان تبحث عن تجهيزاتها في خطوط القتال ، وان تنتزع اسلحة العدو لتسلح بها نفسها. ولقد سجلت هذه الوحدات انتصارات كبيرة في هـــذا المجال.

وفطنت القيادة الثورية الى ضرورة تطوير الطبيعـــة التقنية للجيش الثوري المناضل، وذلك برفع طاقة الروح البطولية في نفس الجندي من اجل التعويض عن الضعف في العتاد. ولهذا نجح الجيش الثائر في دحر الأعداء الذين كانوا اقوى منه بأسلحتهم وتنظيماتهم وامكاناتهم، وذلك بأسلحة اقل منها كماً ونوعاً. ولقد اصبح للجيش الفيتنامي تقليد رائع راسخ وهو: هزيمة الأسلحة الحديثة بالروح البطولية.

واذا كان ماوتسي تونغ وجياب قد اغنيا حرب العصابات بالافكار والمبادىء والدراسات والتجارب ، فان الثـــائر غيفارا يطل علينا من العالم الجديد في اميركا ، ويقدم لنا بعض الافكار والتجارب الجديدة ، التي كانت الثورة الكوبية ميداناً لتطبيقها والاستفادة منها وتطويرها. وبالرغم من ان غيفارا تبنى نظريات ماو وأفكاره ، واستند اليها في دراساته وتجاربه ، فإنه ترك بعض الأثر على النظرية الشيوعية في حرب العصابات، ذلك انه قدم « نظرية البؤرة الثورية » التي توسعت في بحث المرحلة الاساسية الاولى للثورة ، تلك المرحلة التي لم يتناولها ماو وجياب بالتفصيل والاستقصاء.

وتقوم نظرية البؤرة الثوريـة على اساس ان منظمة تضم عـدداً قليلاً من الثوريين المحترفين – القـــديرين نظرياً والمدربين عملياً حسب جميع قواعد الفن العسكري وأصوله – ان منظمة كهذه هي وحدها القادرة ، في ظل نظام رجعي خاضع كلياً او جزئيـاً للاستعمار ، على الاطاحة بالحكم العميل وايصال النضال الثوري الى اهدافه ، ويقول غيفارا في

مقدمة كتابه عن حرب العصابات: إن الثورة الكوبية قدمت ثلاثة مبادىء أساسية لستراتيجية حرب التحرير الشعبية، وهي:

— ان القوى الشعبية قادرة على ان تربح حرباً ضد الجيش النظامي.

— يجب ان لا ننتظر دوماً اكتمال جميع شروط الثورة للقيام بها، فحرب التحرير الشعبية تستطيع ان تخلقها.

— في جميع البلدان النامية التي تناضل من أجل التحرر يجب ان يكون الريف ميدان النضال المسلح بالدرجة الأولى.

والسمة الأولى للبؤرة الثورية — بالرغم من كونها تنطلق في البدء من جماعة صغيرة (من ١٠ — ٣٠ شخصاً) من الثوريين المحترفين — هي انها لا تتطلع الى استلام السلطة بواسطة الحرب، انما تمثل هدفها في ان تضع الجماهير في حالة تستطيع عندها ان تصبح جاهزة وقادرة على استلام السلطة. ان البؤرة الثورة لا تزعم انها ستشد الجماهير اليها بعد استلام السلطة، وانما قبل ذلك، وتعتبر هذا شرطاً أساسية للاستيلاء على السلطة.

واذا كان الريف ميدان النضال المسلح — كما يقول غيفارا — فان هذا لا يمنع من ان تتطور في المدن بؤر ثانوية في المعامل والجامعات. وقد انتهى ثوار اميركا اللاتينية الى بعض النتائج التي تدور جميعها حول نظرية البؤرة الثورية، وأهم تلك النتائج:

— ان النضال المسلح المفهوم على انه فن — بمعناه المزدوج كتكتيك واختراع — لا معنى له الا في إطار سياسة مفهومة على انها علم.

— ان وجود حزب طليعي — بالرغم من ضرورته — ليس شرطاً أساسياً لبدء النضال المسلح.

— ان التنظيم السياسي العسكري لا يمكن ان يُوجأ، ولا يمكن ان تترك مهمة بنائه لتطور النضال.

— في دول العالم الثالث، حيث يهيمن الريف، لا يمكن نشر الايديولوجية

الثورية بصورة دائمة بين الجماهير الا بدءاً من بؤرة تمردية .

– ان التأطير السياسي للنضال المسلح غير قابل التحقيق إلا في الريف . وهذا معناه انه لا وجود لحرب التحرير الشعبية في المدن كشكل نظامي للنضال الثوري.

ويتابع المؤلف بعد ذلك البحث في جوهر حرب العصابات، وستراتيجيتها وتكنيكها ، وتنظيمها وقتالها وقيادتها ، ونظرية قبول الحرب على ارض الوطن ، واستخدام الأرض ، وقتال المدن ، والوقاية من الطيران والنابالم والغازات السامة ، وعمل العصابات خلف خطوط العدو ، والأسلحة الشعبية والتموين والصحة والدعاية والاعلام والأمن والمخابرات في حرب العصابات ، والصفات التي يجب ان يتحلى بها المقاتل ، وأسس النظام والانضباط والتدريب والتثقيف السياسي في جيش التحرير .

* * *

هذا عرض موجز لبعض فصول الكتاب . اذ لا تمكن الاحاطة بجميع ما تضمنته صفحاته التي بلغت اكثر من ٥٧٠ . وقد ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى في اواخر العام الماضي ، بنحو ٢٥٥ صفحة ، ثم اضاف عليه مؤلفه فصولاً جديدة، وتوسع في ابحاثه الأولى ، ونشره على الناس في طبعته الثانية . وكان الكتاب قبل هذا وذاك كراسة بنحو ٣٠ صفحة ، حملت عنوان « دراسات في حرب التحرير الشعبية من لينين الى غيفارا » .

ولعل من الأولى بالمؤلف ، لو احتفظ باسم كتابه الصغير الاول « حرب التحرير الشعبية » عوضاً عن « حرب العصابات » . ذلك ان حرب العصابات هي اسلوب يقتصر تنفيذه واتباعه على رجال العصابات انفسهم . ويسيطر هذا الاسلوب في المراحل الأولى والثانية من مراحل حرب التحرير الشعبية[1] . اما حرب التحرير فانها

(١) ص ١٢

تستقطب جهود جميع المواطنين ، نساء ورجالاً . فمنهم من يحمل السلاح وينضم الى وحـدات المناضلين ، سواء كانوا يشكلون مفارز صغيرة او عصابات مترابطة ، او يؤلفون وحدات منظمة ذات انساق وقيادات وقواعد متعددة ، ومنهم من يعمل في الانتاج والامداد والاستخبارات ، ومنهم من يعمل في المجال السياسي الداخلي او الخارجي .

اضيف الى هذا نقطة ثانية ، كنت اتمنى على المؤلف ان يوليها العناية والبحث ، ذلك أنه عرض مختلف النظريات والوقائع الخاصة بحرب التحرير الشعبية ، بدءاً من عمليات المقاومة الاسبانية في مطلع القرن التاسع عشر ، وانتهاء بنظريات الجنرال جياب في الحرب الفيتنامية وكاسترو وغيفارا في الثورة الكوبيـة ، ومروراً بانجلز وماركس ولينين وستالين وماوتسي تونغ وغيرهم ، سوى اننا في جميع صفحات الكتاب لايلقانا وجه الثورة الجزائرية ، وانما نلمح هنا وهنـاك ، سطوراً مبعثرة قليلة تتضمن بعض الوقائع العابرة ، وليس هناك من مؤرخ لثورات التحرر في القرن العشرين ، يمكنـــه ان يتجاوز الثورة الجزائرية ، او يمر عليهـــا دون تحليل وتفصيل . لان هذه الثورة ، كانت نموذجاً من نماذج حرب التحرير الشعبية في أهدافها وستراتيجيتها وتكتيكها وقيادتها وتنظيمها السياسي والعسكري ، وفعاليتها في ميادين السياسة الخارجية والاعلام وتعبئة الرأي العام العالمي ، وأثرها المباشر وغير المباشر في حركات التحرر في العالم الثالث وبخاصة في افريقيا .

وقد يعترض على ذلك من يقول ان حرب التحرير الشعبية في الجزائر كانت بدون نظرية عسكريـــة ، تقوم عليها تنظيماتها ، وتستوعب ستراتيجيتها ، وتسير بموجبها عملياتها العسكرية ، ولم يكن هذا شأن ثورة اكتوبر الشيوعية ، والثورة الصينية والثورة الكوبيـــة ، والحرب الفيتنامية ، وكان لكل حركة من هـذه الحركات منطلق نظري ، وستراتيجية

وتكتيك . وقد تطورت هذه الستراتيجيات والتكتيكات تطوراً يتناسب مع الخبرة والتجربة ، وأصبحت تراثاً يشكل كياناً قائماً بذاته ، يمت الى كل ثورة بصلات خاصة بها ، منطبقة على اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية ، ومتجاوب مع أهدافها القريبة والبعيدة . أما في الجزائر ، فاننا لانرى سوى اهداف وطنية محصورة بالاستقلال وطرد المستعمر المستوطن او اقامة حكم وطني مستقل .

قد يكون هذا الاعتراض صحيحاً في ظاهره . ولكنه يجانب الحقيقة بعض الجانبـــة . إذ ان الثورة الجزائرية غنية بالوقائع والعمليات العسكرية والنضالية ، والمنبعثة من تخطيط ستراتيجي وتكتيكي متين الأسس واضح المعالم ، والقائمة على تنظيمات عسكرية سياسية متسلسلة في تركيبها متناسقة في أعمالها متعاونة في نشاطها .

واذا كان مخططو الستراتيجية والتكتيك في الثورة الجزائرية لم ينشروا على الناس آراءهم واجتهاداتهم في النظرية والتطبيق ، فلأنهم آثروا — على ما ارجح — ان يكتموا تلك الآراء والاجتهادات ، ليتجنبوا ، قدر المستطاع ، شراسة الاستعمار وضراوة جيوشه وآلاته في التعرف الى خطط الثورة واتجاهاتها . ولقد كنا نتمنى على قادة الثورة ان يفعلوا ذلك بعد النصر في عام ١٩٦٢ ، فينشروا الوثائق ، ويكتبوا المذكرات ، ويحللوا مراحل الثورة واشكال النضال ، في الريف والمدن ، وفي الميادين السياسي والعسكري ، وفي المجالين الداخلي والخارجي . ولكن تتابع الاحداث والتطورات بعد الاستقلال وازدياد الصراع بين الكتل والتشكيلات التي كانت تضمها جبهة التحرير الوطني ، شغلت الزعماء والقادة ، ومنعت معظمهم من الاهتمام بتأريخ الثورة . كما ان مشكلات بناء الدولة وتنظيم المجتمع والمسائل الصعبة المعقدة التي خلفتها الثورة في القطر الجزائري ، استقطبت جهود

قادة الثورة واخذتهم في دوامتها الواسعة الرهيبة . وهـــذا – في ظني – السبب الرئيسي الذي جعل الثورة الجزائرية – بالرغم من عظمتها وعمق ستراتيجيتها وبراعة تكتيكها وتنظيماتها – تبقى بدون تراث غزير مؤرخ . سوى ان المرء يجد – بالرغم من هذه الندرة – بعض الوثائق والدراسات المطبوعة ، باللغتين العربية والفرنسية ، لمؤلفين عرب واجانب ، تلقي بعض النـــور على بعض جوانب الثورة . فالى جانب مجلة « المجاهد » التي تعد الوثيقة الهامة الاولى في هذا المجال ، نجد امامنا « فرانز فانون » الذي عبر عن روح الثـــورة وكنهها ، وكشف غور اعماقها ، وبخاصة في كتابه « معذبو الارض » . ولا يقل كتاب « الجهاد الافضل » للمناضل عمار اوزغان اهمية عن كتاب فانون . وهناك كتب ودراسات متفرقة اخرى يمكن الاعتماد عليها في هذا المجال .

جبران حيّاً وميتاً

تأليف : حبيب مسعود
عرض : حارث طه الراوي
- بغداد

يشتمل كتاب « جبران حياً وميتاً » على قسمين ، الأول يضم مختارات نثرية وشعرية لجبران مع صور بريشته . والثاني يضم مختارات مما قيل في رثائه على اثر وفاته .

وقد صدّر الأستاذ حبيب مسعود هذا الكتاب بمقدمة وأنهاه بخاتمة افترشت من الكتاب الصفحات التالية : ٨٣٢ - ٨٣٩ . وهذه الخاتمة لم تكن موجودة في الطبعة الأولى التي صدرت سنة ١٩٣٢ فقد كتبها جامع الكتاب سنة ١٩٦٦ .

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه أوّل كتاب سجّل ، بأمانة ومحبّة ، حياة جبران ، وذكر ، بلوعة وحسرة ، موت جبران ، وانتقى صوراً مشرقة من الأدب الجبراني الحي المجنّح ...

ولكن ... لا يصح ان نخلع على المقالات التي نشرت عن جبران ، في هذا الكتاب ، صفحة الدراسات . ذلك لأنها لا تعدو أن تكون انطباعات معجبين وعواطف محبين ، بعيدة ، في الغالب ، عن الموضوعية وما توجبه من تحليل وتعليل ...

أما القصائد ، فقد جاء بعضها مشحوناً بالمبالغة التي لم تتورّع عن التقديس ، من

ذلك ما فعله « شاعر مجهول » بقصيدته « مات النبي »[1] وما فعله الشاعر « حميد معوّض » في قصيدته « يهوى من العليا نبي زمانه »[2] . وهو تقديس لا يشفع به حسن النية ولا يجوز أن يخلعه بشر على بشر ...

ولما كانت «الخاتمة»[3] الجديدة تحتوي على آراء الاستاذ مسعود حول جبران الأديب وجبران الانسان تستدعي المناقشة ، لهذا آثرت أن أناقشها بقدرما أعرف عن جبران الاديب والانسان ...

يحاول « حبيب مسعود » جاهداً أن يبرّر لجبران الأديب عثراته اللغوية وضعف أسلوبه العربي بحجج لا أراها ترقى الى مستوى القوة كقوله :

« أما الذين عابوا جبران في لغته وفي بعض تعابيره التي خرجت على النمط العربي فقد كان اكثرهم متعسفاً لا يرى في أدب جبران وحلاوة تعابيره وعذوبة بيانه وطرافة تشابيهه ونبضة الحياة في ألفاظه ، غير تلك الهفوات التي لم يسلم منها أحد من أدباء هذه اللغة التي تعجز أي بشري عن الاحاطة بها لكثرة سماعها وغرائب قواعدها وتعددوجوه الاجتهاد فيها .. » .

ويقتضينا الانصاف أن نقول ان هفوات جبران اللغوية وركاكته البيانية قد سلم منها الكثيرون من أدبائنا الذين هم من عيار جبران او دون عياره ... فقد كان جبران يخطىء احياناً ، في أوليّات اللغة كما هو معروف عنه . واذا كانت هذه اللغة «تعجز أي بشري عن الاحاطة بها ، لكثرة سماعها وغرائب قواعدها وتعدّد وجوه الاجتهاد والتخريج فيها » كما يقول « حبيب مسعود » فما علاقة ذلك بالعثرات اللغوية والنحوية عند جبران ، وهي عثرات لا يكثر فيها السماع ولا تتعدد فيها وجوه التخريج والاجتهاد ...

لقد ارتفع جبران بأفكاره ومعانيه

(١) ص ٧٢١ — ٧٢٢
(٢) ص ٧٣٣ — ٧٣٤
(٣) ص ٨٣٢ — ٨٣٩

الى قمم الابداع الشاهقة ، فكان يجمل به ألا يضع اساوبه العربي في غير مستوى القمم ... ولا يكفي أن يقول الأديب العربي لإخوانه أدباء العربية : « لكم لغتكم ولي لغتي » كما قال جبران ، لكي يكون معصوماً من الهفوات ، بعيداً عن المآخذ . فجبران قال ذلك باللغة العربية لا بلغة ابتدع حروفها وألفاظها وقواعدها من مخيلته ...

أقول ذلك ، بالرغم مما هو معروف عني من عدم مجاراتي لأولئك المتعسفين المتزمتين الذين نفذوا من عند الثغرة في أدب جبران ليحطموا أدبه الخالد أو يضيقوا الخناق على افكاره الانسانية التقدمية التي عصفت بكل ما هو جامد وراكد وحطمت سلاسل العبودية التي تكبل القلوب والعقول ...

ويقول حبيب مسعود في معرض دفاعه عن أسلوب جبران : « وآخذ على جبران ايغاله في مسابح الخيال حتى ليغيب عن الابصار ، واغرابه في الرمزية حتى ليعيي قارئه » . ويرى مسعود ان هذا المأخذ « يشمل معظم العباقرة والمرسلين وأصحاب الدعوات الذين اعتمدوا الأمثال والرموز في أقوالهم وتعاليمهم وأناشيدهم التي ماتزال حتى يومنا هذا مدعاة للتأويل والجدل ... » ولكنه يعترف بعد ذلك بأن « جبران يرهق اللفظة فيحملها فوق ما تستوعب من المعنى ، وكانت افكاره اشبه بسرب من الطير يقع على قبضة من الحب فتتشابك المناقير ويتبدى التشويه » وبالرغم من اعترافه هذا فانه لا يعذر أولئك الذين يجيرهم الغموض الجبراني ويتهمهم بعدم التجاوب حيث يقول : غير ان اللبس والاشكال ليس مردهما الى ذينك الايغال والإغراب بل الى انتقاء التجاوب . وذلك أمر الذين يعجزون عن ادراك الرموز التي يعتمدها الصوفيون في مذاهبهم حيث الالفاظ تدل على غير معناها المتعارف . فالمتعسفون الذين يحكمون على كتابات جبران بالغموض هم كالذين ينفون وجود الاحياء المجهرية

التي لاترى بالعين المجردة . ان كل ضباب يغشو بعض أفكار جبران ينقشع أمام المفكر المتجاوب ».

وأقول للاستاذ مسعود : اذا كانت الرمزية « الشفافة » تفعل في الأدب فعل الملح في الطعام فان الرمزية « المكثفة » تفعل في الأدب فعل العلقم في الطعام ، وبعض رمزية جبران لاسيما في كتابيه « النبي » و « آلهة الأرض » من النوع الذي تضيع في تيهه عقول كثيرة ربما يكون بينها عقل جبران !

* * *

ويصل الاستاذ حبيب مسعود الى أقصى درجات الانفعال عندما يتطرق الى الذين امتدت اقلامهم الى حياة جبران الخاصة ، حيث يقول :

« وأما الذين تعرضوا لجبران انساناً وخلقاً وسلوكاً فلا ثرب عليهم ولاجناح لو أنهم تقصوا ونكتوا لهتك حجب الاساطير التي ضربها حول اسمه المغرقون عن هوس والمجدون عن عصبية والمقدسون عن عمه . غير ان بعضهم عمد الى التشنيع والتقريع واعد الخشبة ليصلبه عقاباً على مااقترف من منكرات . وماتلك المنكرات في شرع هذا البعض الا حب وادعاء وتضليل ، فقالوا ان جبران أحب وغر وادّعى مولده في بومباي ونسبه الى أصل نبيل . فكأن جبران في نظر جلاديه خليع ودجال ومضلل ادّعى النبوة والقداسة فكان عليهم ان يمزقوا وشاح النبوة وستار القداسة ردعاً لحواريه وانصاره » .

ككل بشري أحب جبران لكنه لم يكن اباحياً كما شاء جلادوه ان يصوروه. وجبران احب ولكنه لم يكن خليعاً كما زعم الذين حشدوا الأخيال ليهدموا كل معلم من معالمه في دنيا الادب والفن . وجبران احب لكنه لم يكن زيراً ينفق أيامه ولياليه باحثاً عن طريدة يحتبلها »

الى أن يقول :

« في جبران كما في كل أنسي مواضع ضعف ولعل هذا الضعف استدرجه الى

التفتيش بنبل محتده ، او الى المغالاة بثقافة امه او الى ردمنبته الى ديار يغشوها ضباب الاساطير وتزدحم في تأريخها غرائب التأريخ . ولكن من أجل تعاظم بريء هو من أعراض الضعف البشري يساق الى النطع القائل :

والحب ان قادت الاجسام موكبه

الى فراش من الاغراض ينتحر

أنهمل كل مابث من حكمة وجمال وفن ، ووهب من كرامة ومجد لقومه ووطنه ، فنجرمه لنزوات وهنات قد تكون صدقاً وقد يكون امرها امر حواره الملفق مع ميشلين وهاسكل وغيرهما ؟ . . »

والمقصود بالذين تعرضوا لجبران انساناً وخلقاً وسلوكاً ، لا جماعة ، كما تدل صيغة الجمع ، وإنما فرد هو الاستاذ ميخائيل نعيمة بكتابه « جبران خليل جبران » . إذ لم يخض كاتب عربي قبل نعيمة في البحث عن حياة جبران الخاصة وعلاقته بميشلين وماري هاسكل ؛ فكان في بعض مواضع كتابه جريئاً ومنصفاً وفي المواضع الأخرى جريئاً ولكنه بعيد عن الانصاف !

وقد اثارت جرأة نعيمة أديبين عربيين كبيرين تربطهما صداقة واخوة روحية متينة مع « جبران خليل جبران » هما « امين الريحاني » و « فيلكس فارس » فقد وجه « الريحاني » رسالة[1] الى « ميخائيل نعيمة » في ٦ كانون الثاني سنة ١٩٣٤ نشرتها احدى صحف بيروت وما قاله بخصوص اسرار جبران الغرامية :

« ومن قال لك ماقال جبران في قلبه ؟ أجبران نفسه الذي تصفه انت ، ونعرفه نحن حريصاً على مابقلبه ، شديد التكتم والتستر ؟ فاذا كان في اعماق اعماقه امنيته لا يجوز ان يبوح بها حتى الى نفسه كما تقول ، فكيف يبوح بها اليك والى سواك ؟ واذا كان قد باح بها الى احد من الناس ، فمن اين جاءك العلم ان

---

(١) رسائل امين الريحاني ط الاولى ١٩٥٥ ص ٣٩٠ - ٤٠٣

لم تكن قد اصبحت صنواً للعالم بذات الصدور سبحانه وتعالى ؟

ان هذه الناحية من كتابك ، لاتفيد أحداً ، وهي لاتزيد بأدب جبران او تنقص منه ، ولاتزيد بقيمة كتابك ، بل تنقص كثيراً منها . هل يجوز لي ان اتجسس قلب من اخلص لي الحب وان اذيع مايبيحه لي في ساعة (بأسه) أو ساعة تمتزج نفسي بنفسه امتزاج الراح بالماء ؟

لقد وثق جبران بك ، فكان يحب فيك (القلب الكبير والروح الطيبة) افما كان الأجدر بهذا القلب ان يتسع للضعف البشري في اخيك وحبيبك ؟ »

ولعلّ هذه السطور اهدأ مافي رسالة الريحاني الى نعيمة ذلك لأنه ضمن سطورها الاخرى اتهاماً لنعيمة بالأنانية .

وقد اتيح لي ان اعرف بأن الريحاني كان يزمع تضمين رسالته عبارات اشد واقسى ولكنه عدل عن ذلك .

فقد عثرت ذات مرّة في مكتبة الريحاني بمنزله في الفريكة على نسخة من الطبعة الاولى من كتاب « جبران خليل جبران » مهداة من مؤلفه ميخائيل نعيمة الى امين الريحاني ، فاطلعت على هوامش الكتاب التي دونها الريحاني في معرض التعليق على بعض اقوال نعيمة ، وقد آثرتُ ان ادونّ بعض تلك الهوامش نظراً لأهميتها التاريخية . قال الريحاني :

ص ٧٣ : « يقلدّ جبران وليته قلد ماري هسكل في جلاميانها وفي صراحتها » .

ص ٨٤ : « ليت المؤلف يردع نفسه فيما نظنه اكتشافات سيكولوجية » .

ص ٩٦ : « أتجرّه الى كرسي الاعتراف ليعترف ويحاسب نفسه وتقف انت الى جنبه لتلقنه كلمات الحساب أو تذكره بها ، فيفتنك الموقف ويعلو صوتك صوته فتقول : لقد آمن جبران ، ثم يختلط بصوته فـــلا ندري من منكما المعلّم ومن التلميذ » .

وقد ضرب فيلكس فارس على نفس هذا الوتر في البحث الذي كتبه تحت

عنوان « جبران – بحث في كتاب نعيمة عنه » ونشره في كتابه « رسالة المنبر الى الشرق العربي »[1] حيث قال :

« قرأت كتاب نعيمة معجباً بأسلوبه الرائع في ايراد الحوادث التي مر بها جبران منذ ولادته حتى موته ، فان القارىء ليجد نفسه وهو يطالع هذه الصفحات امام مشاهد لا يقدر على رسمها بمثل هذا الجلاء وهذه الألوان الا قلم العبقري الوثّاب المتدفق حكمة وفناً .

ولكني كلما صدمني من هذه الصفحات كلام يعزوه المؤلف الى جبران في مخاطبته الناس أو مناجاته ضميره ، كنت اشعر بثورة في نفسي فأمد أناملي لأقبض على السطور والحروف أقتلعها كأنها أعشاب غريبة ألقت بذورها الرياح الهوجاء في هذه الحقول الزاهية بالأزهار الأصيلة فيها .

ان ما قد يكون جبران فكر فيه ، وما يفترض افتراضاً انه قاله للآخرين ، لا يمكن للمطالع ان يقبل به كأنه حق اذا لم يكن مكتوباً بقلم جبران نفسه . فان الطريقة الروائيـــة اذا صحت في الاساطير والاقاصيص عن اشخاص مجهولين أو مختلقين اختلاقاً ، فانها لا تصح مطلقاً في سرد الوقائع عن رجل معروف ملك البيان بأطرافه وليس لسواه أن يتولى الكلام عنه في أي موقف من مواقفه تجاه ربه أو تجاه نفسه أو تجاه أي كان » .

ولا يسع المنصف الا أن يتفق مع مسعود والريحاني وفارس في هذه الناحية ، اذ لا يجوز لمخائيل نعيمة أن يتحدث بلسان جبران على الطريقة الروائية ... حتى ولو كان حسن النية يهدف الى أن يجعل حياة صديقه مادة صالحة لفلم سينمائي ..

والظاهر أن معلومات نعيمة عن غراميات صديقه جبران قليلة وغير مثيرة ، فأسبغ عليها هذا الحوار الروائي ليجعلها اكثر اثارة وتأثيراً ، فتحدى بذلك حرمة

(١) الطبعة الاولى ص ١٥٣ – ٢٢٥

الحقيقة التي تتذرع باحترامها في رسالة[1] وجهها الى حبيب مسعود الذي استهجن موقف نعيمة هذا في فصل من فصول كتابه « ما أجملك يالبنان » حيث قال:

« ولأنك عرفتني عن كثب - ولو بعض المعرفة - تراني استغرب منك تلميحك الى (الهفوات) التي ارتكبتها في كتابي عن جبران . لقد ترجمت هذا الكتاب الى الانكليزية ونشرته منذ عامين في نيويورك دار معروفة للنشر تدعى (المكتبة الفلسفية) . وفي جملة الذين كتبوا عنه الفصول الطوال في الصحف الامريكية كانت ماري هاسكل - لا غيرها - فهي حية ترزق . وليته كان في امكاني أن انقل اليك ما كتبت وهي التي خبرت جبران خبرة واسعة قرابة ثلاثين عاماً . لقد اعجبت كل الاعجاب بالكتاب وشبهتني وجبران برجلين يتسلقان أعالي جبالها . ان تكن للصداقة حرمة ، فللحقيقة وللفن حرمة أعظم وأقدس » .

وبالرغم من أن كتاب نعيمة عن « جبران » من الكتب النفيسة في التراجم التي يعتز بها النقاد المنصفون فلا يمكننا أن نجرد ثناء ماري هاسكل عليه من الاعتراف بالجميل . فقد ذكرها نعيمة في فصل « جثمان جبران[2] » بالخير بقوله :

« .. وهناك - في تلك القاعة - تعرفت بماري هاسكل التي قدمت من سافانا البعيدة لتحضر الدفن فرأيت الرصانة والبساطة والدعة ورحابة الصدر في كل ملامحها ، حتى في ثيابها .. »

وأعود بعد هذا الاستطراد الى الموضوع فأتساءل : كيف يوفق الاستاذ ميخائيل نعيمة بين حرمة الحقيقة وبين الاسلوب الروائي الذي ينوب فيه عن جبران في التحدث عن نفسه ؟ أما كان الاجدر بنعيمة ، وهو يبدد جبران

(١) مجلة العصبة الاندلسية - العددان ٢ و ٣ نيسان وأيار ١٩٥٣ .
(٢) جبران خليل جبران ط ٢ ص ٢٧٠

الاسطورة[1] ، ألا يحيط هذه الاسطورة بأسطورة جديدة من الفن الروائي ؟

أنا لا أنكر على نعيمة تطرقه الى الناحية الجنسية في حياة جبران بالرغم من انكار الكثيرين عليه ذلك . فالصورة الكاملة لجبران ينبغي ألا تخلو من ذكر هذه الناحية . ذلك لأن جبران كان يحاول باخلاص أن يتغلب على ذاته ، فلا يمكننا معرفة مدى نجاحه في هذه المحاولات من غير أن نعرف نواحي ضعفه ...

ولكني أنكر على نعيمة الطريقة التي عرض بها الناحية الجنسية عند الرجل ، اذ لا يمكن أن تكون الاثارة فيها غير مقصودة ... فهي تثير شكوى كما كان نعيمة في غنى عنها ...

لقد قرأت عشرات المرات كتاب الأديب الروائي العالمي الأشهر «ستيفان زفايج» عن «تولستوي» فما وجدت المؤلف ضنيناً بذكر الناحية الجنسية عند تولستوي ، ولكنه لم يكن ليجسمها بأسلوب الروائيين بالرغم من تضلعه المعروف في فن الرواية ...

وعلى أي حال فان بعض ما كتبه نعيمة من أمور مثيرة عن جبران لا يبرر غضب المنصفين وهياجهم . فليس من الانصاف أن ننعت نعيمة أو غير نعيمة من الذين تطرّقوا الى ضعف جبران الانسان او الأديب، بالجلاد ... ، فالنقاد أحرار فيما يذهبون اليه من آراء ووجهات نظر . وان احاطة جبران بهالة من القداسة يتنافى مع اعتراف مقدسيه انفسهم بأنه من طينة البشر . فالاستاذ مسعود نفسه يعترف في الخاتمة ص ٨٣٨ قائلاً :

« ... فجبران ما أردناه نبياً يحلّى عليه ، ولا خليقة منزهة عن الضعف البشري ، ولا أسطورة تتضخم بالتناقل والتواتر . وانما اردناه بشراً سوياً يحمل

(١) جبران ص ٦ : «.. لكنني لما عدت الى الشرق بعد عام لوفاة جبران وجدت صديقي يكاد يكون أسطورة من الاساطير حتى في بلاده . فهو ليس جبران الذي رافقته خمس عشرة سنة وخبرت أحلامه وآلامه ... » .

صفاتنا ورغباتنا وأهوائنا وسائر الطباع البشرية . وهو لكذلك » . فكان يجمل بالاستاذ حبيب – وهو الذي يعتقد مثل هذا الاعتقاد الصحيح – أن يزن الشخصية الجبرانية والأدب الجبراني بميزان الموضوعية ويخفف من حدة هجومه على الذين درسوا جبران بمعزل عن تيار الاعجاب الجارف .

ولكن لا يسعني إلا أن اعترف بأن « حبيب مسعود » ان لم يكن منصفاً ببعض ما كتب في « الخاتمة » فحسبه أنه كان مخلصاً .

أصدقاء لا سادة (1)

للرئيس الباكستاني
محمد أيوب خان

ترجمة : د. عمر فروخ

الكتاب هو السيرة السياسية الرئيس الباكستاني محمد أيوب خان ، وقد كتبها بنفسه . يقع في حوالي ٤٠٠ صفحة ، يروي فيها الكاتب طفولته وصباه ، وأيامه الأولى في الجيش ، ومفاهيمه في سياسة باكستان الداخلية والخارجية . وقد أفرد المؤلف بحثاً خاصاً ، عنوانه « الانقلاب الثوري » (2) الذي قام به الرئيس أيوب خان بمعونة الجيش الباكستاني سنة ١٩٥٨ ، بعد ان تردت الاوضاع في البلاد .. وكان للثورة اهدافها القريبة والبعيدة . فالقريبة هي التعجيل بانهاء حالة الأحكام العرفية واشاعة الاستقرار في البلاد لينصرف الناس الى أعمالهم . » أما الاهداف البعيده للثورة فكان من بينها القيام بالاصلاحات الرئيسية التي ترمي الى ازالة الفوضى ومحو الفوارق في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد . وكانت غـاية

(1) منشورات مكتبة لبنان — بيروت ١٩٦٨

(2) ص ١١٧ من الطبعة العربية

هذه الاصلاحات ان تبلغ الى وضع دستور صحيح للبلاد والى عودة الحياة الدستورية السليمة . وقد اقترح عليّ بعضهم مرة أن يوضع للبلاد — في اثناء القيام بهذه الاصلاحات — دستور موقت او ترتيب قريب صالح للعمل ، قبل التوصل الى اقرار الدستور النهائي . غير اني رأيت في تلك الخطوة شيئاً خطيراً . ان الحكم العرفي هو في الواقع دستور تقريبي صالح للعمل ، وقبل الغاء الحكم العرفي يجب ان يكون للبلاد اطار دستوري دائم ، فقلت في نفسي : اذا وضع الدستور فيجب ان يكون في شكله النهائي » .

•

بدر شاكر السياب [1]

حياته وشعره

تأليف : نبيلة الرزاز اللجمي

عرض : ظافر عبد الواحد

هذه أطول دراسة عن الشاعر العراقي بدر شاكر السياب (١٩٢٦ - ١٩٦٤)، وكانت وزارة الثقافة والارشاد في العراق أصدرت في « سلسلة الكتب الحديثة » دراسة لصديقه عبد الجبار داوود البصري سماها « بدر شاكر السياب، رائد الشعر الحر »، اعتمدت عليها السيدة نبيلة فيما اعتمدت عليه من مراجع في دراستها هذه التي تحدثت فيها عن حياته وشعره. وصنفت شعره الى وجداني وثوري. فأدرجت تحت عنوان الشعر الوجداني مواضيع الأسرة والحب والارض والوطن والموت، وتحت عنوان الشعر الثوري مواضيع المجتمع والسياسة وحركات التحرر العربي والانسانية.

ودرست المؤلفة العوامل التي أثرت في شعر السياب، وأبرزت التجديد في شعره، وقسمت مراحل تطوره الى ثلاث : رومنتيكية وواقعية وذاتية. وبعد أن بينت خصائص شعره وعرفت بأبطال الأساطير الواردة فيه، اختتمت الكتاب بمختارات من شعره هي قصائد « في السوق القديم » و « غريب على الخليج » و « في المغرب العربي » و « المسيح بعد الصلب » و « لأني غريب » و « ليلة في لندن ».

---

(١) منشورات مكتبة أطلس - دمشق ١٩٦٨

معركة ميسلون[1]

تأليف : إحسان هندي

عرض : ظ . ع

يمتاز هـذا الكتاب بأنه دراسة موضوعية لمعركة ميسلون من الناحية العسكرية والظرف السياسي الذي كان محيطاً بها. ذلك أن المؤرخ العسكري إحسان هندي لا يعتمد على المراجع العربية المتوفرة حول هذه القضية وحسب بل يعمد الى المخطوطات وأقوال الذين اشتركوا في المعركة ويقوم باستطلاع شخصي لأرض المعركة برفقة بعض الضباط الذين شاركوا فيها. ويعود الى المراجع الفرنسية . وقد وجد في هذه المراجع المستندة الى وثائق عسكرية ، ما يكمل الصورة التي نعرفها عن المعركة ، ببيان نسبة القوات الفرنسية الى القوات العربية كماً وكيفاً ، وبيان الملابسات السياسية التي رافقت الغزو الاستعماري للاراضي السورية .

ذيل الكتاب بجدول بتواريخ الأحداث الرئيسية الوارد ذكرها في الكتاب ، اعتباراً من خلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ حتى مغادرة فيصل لدمشق متوجهاً الى درعا ومنها الى حيفا فأوروبا .

---

(١) منشورات وزارة الثقافة – دمشق ١٩٦٨

كما يتضمن الكتاب بعض المخططات الهامة مثل : مخطط اتفاقية سايكس – بيكو ، ويوضح منطقة نفوذ فرنسا (المنطقة الممتدة على طول الساحل السوري من اسكندرون شمالاً حتى رأس الناقورة جنوباً) ومنطقة نفوذ بريطانيا (بغداد والبصرة) . كما يبين تقسيم باقي سورية والعراق والأردن الى منطقتين يكون لبريطانيا مقام ممتاز في المنطقة (أ) ولفرنسا مقام ممتاز في المنطقة (ب) .

كما أن هناك ثلاث مخططات تصور ساحة حركات القوات العربية والفرنسية بين دمشق والرياق ، واشتباك القوات في هذه المعركة .

ونعود للقول بأن هذا الكتاب دراسة موضوعية عن المعركة التي أثبت فيها عرب سورية أنه لا يمكن احتلال شبر واحد من اراضي سورية الا مروراً فوق جثث أبنائنا .

معجم المصطلحات الأثرية (١)

(بالافرنسية والعربية)

تأليف : يحيى الشهابي

عرض : عدنان بني

كتاب من الحجم المتوسط يبلغ مجموع عدد صفحاته ٤٦٥ وهو يضم ٣٢٩ شكلاً ايضاحياً . يعتمد هذا المعجم بشكل رئيسي على « معجم الفن والآثار » الفرنسي الذي ألفه « بول ريو » وعلى معجم آخر للمؤلف نفسه أصدره بعدة لغات ، وفي موضوع الفن والآثار أيضاً .

وثمة اعتماد قليل أو كثير على معاجم عربية وأجنبية أخرى .

يمكن اعتبار هذا المعجم الجديد ، الى حد ما ، تعريباً للألفاظ والمصطلحات الأثرية والمعمارية الواردة في معجم « بول ريو » ، مع منتخبات من المصطلحات الفنية من وقت لآخر . وقد أهملت ألفاظ ومصطلحات كثيرة لانصرافها

(١) منشورات مجمع اللغة العربية – دمشق ١٩٦٧

الى أمور تفصيلية متعمقة جداً لاتهم حتى الاختصاصين بله عامة المثقفين .

ترتيب المعجم موضوع البحث هو الترتيب الأبجدي الفرنسي وفي مقابل اللفظ الفرنسي نجد التعريب مشكولاً . والشرح يكون ضمن معترضتين كبيرتين. ولقد زيد المعجم فهرسة عربية عامة تمكّن الباحث العربي من معرفة مايقابل بالفرنسية أي مصطلح يحتاجه .

وفضلاً عن المصطلحات الأثرية الصرفة نجد في هذا المعجم مصطلحات العمارة المدنية والعسكرية والدينية ، ومايتعلق بالأواني الخزفية والمعدنية والزخارف النباتية والهندسية أو بالنحت والتصوير والفنون التطبيقية والحجارة الكريمة والأسلحة القديمة والأساطير الكلاسيكية الخ ...

ان هذا المرجع يمتاز بأنه أثر من آثار باحث وأديب معروف يتقن اتقاناً تاماً اللغتين اللتين يترجم من إحداهما للأخرى ، وله « ولع بعلم الآثار ومصطلحاته منذ كان يعمل في المديرية العامة للآثار والمتاحف .»

وقد قضى في اعداد معجمه عدة سنوات يعمل جاهداً محققاً . كما يمتاز هذا المرجع بأن لجنة برئاسة رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق الأمير مصطفى الشهابي ضمت بعض أعضاء المجمع وبعض اختصاصي الآثار والمؤلف نفسه عكفت على تدقيقه شهوراً طويلة .

وقد عشنا شخصياً عملية التدقيق هذه ، فلا يسعنا الا أن نؤكد أن أكبر الجهد يبذل باخلاص حتى يكون العمل علمياً ومرضياً ، ولكي يصلح كمنطلق لتوحيد المصطلحات الأثرية العربية . واذا مررنا مرور الكرام ببعض الهنات الطباعية والشكلية أو بنقص غير مقصود في بعض الجوانب أو بورود بعض المصطلحات التي قد لاتروق لبعض الاختصاصين في اللغة أو الآثار ، يمكننا أن نشير الى نواح أساسية امتاز بها هذا المعجم وهي :

١ ـ الجرأة في تبني المصطلحات

المتداولة عالمياً في علم الآثار والتي كانت تفسر عادة بجملة طويلة ، واعطاؤها في حدود الإمكان ، صيغة عربية لاتنبو في الاسماع .

٢ – تبني المصطلحات العربية الفصيحة التي تقابل المصطلحات الأجنبية وقبول ماهو حي شائع متداول واضح المعنى من غير الفصيح ، مع الاشارة الى ذلك .

٣ – وضع مصطلحات جديدة لكثير من تفاصيل الآثار والعمارة وجعلها بمثابة مقترحات يتبناها الاختصاصون العرب أو يعدلونها أو يقترحون أفضل منها .

وعلى أية حال ، لانستطيع في هذه العجالة أن ندخل في التفاصيل الفنية التي تميز بهذا هذا المعجم . وقصارانا التعريف به وتأكيد اعتقادنا بأن اسهام الاختصاصيين والباحثين العرب في نقده البناء كفيل باغناء طبعاته المقبلة وجعلها أقرب الى الكمال .

وفي الختام ننوه من جديد بجهود الاستاذ يحيى الشهابي وبالهدية القيمة التي قدمها للمكتبة العربية .

الاقتصاد والحرب

اقتصاد الحرب .. كان موضوع دراسة شاملة أجرتها مجلة الطليعة [1]، واشترك فيها مجموعة من الأساتذة والمختصين. وقد تناول المشتركون في هذه الدراسة الموضوع من عدة جوانب. فتحدث الدكتور فؤاد مرسي عن **اقتصاد الحرب في البلاد النامية**، وتحدث الدكتور الفونس عزيز عن **العلاقات الاقتصادية الخارجية في مواجهة الحرب**. أما الدكتوران عمرو محي الدين وأسماعيل صبري فقد عالجا الموضوع محلياً أي ضمن نطاق القطر المصري، فتحدث الأول عن **النمو الاقتصادي واحتياجات الحرب. في الواقع المصري**، وتحدث الثاني عن **كيفية مواجهة مشاكل اقتصاد الحرب.**

بقيت لدينا دراسة الدكتور عبد الرازق حسن - وهي موضوع عرضنا - التي تناولت موضوع اقتصاد الحرب من وجهة نظر عمومية وشاملة.

(١) - الطليعة - القاهرة - العدد ٣ - آذار (مارس) ١٩٦٨.

تتباين طريقة معالجة الاقتصاد القومي والمشروعات في ظروف الحرب نتيجة لتغير الهدف العام الذي يعمل له المجتمع او تفرضه الظروف عليه .

واقتصاد الحرب يمر بثلاث مراحل : الاستعداد للحرب – مواجهة العدو – تعمير ماخربته الحرب. ولكل مرحلة من هذه المراحل مشكلاتها التي قد تتباين تبعاً لوضع الحرب .

وفي الحرب الدفاعية لاتكون فترة الاعداد للحرب طويلة ، ويكون العدو الذي يستعد للهجوم في مركز أفضل ، وذلك لأن المهاجم يركز اقتصادياته على الحرب وتقوية جهازها . ولكي تنجح خطة الدفاع يجب ان تعتمد على اطالة مدة الحرب حتى يستنفد العدو قواه .

وسنتحدث الآن في مشكلات كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث :

مشكلات الاستعداد للحرب :

يتطلب الاستعداد للحرب خلق أوضاع جديدة، وتعديل بعض الأوضاع القائمة ، منها :

١ – زيادة الطاقة الانتاجية بشكل عام .

٢ – توجيه مقدار أكبر من المشروعات للانتاج الحربي ، مما يؤدي الى نقص السلع المخصصة للاستهلاك المدني وارتفاع أسعارها .

٣ – استخدام مقدار كبير من القطع النادر في التعاقد على شراء عتاد حربي ، وهذا لا يحدد حجم السلع المستوردة فحسب وانما قد يحدد ايضاً اتجاه الطلب نحو البلاد الصديقة .

٤ – يتطلب الاستعداد للحرب توجيه نظر الجماهير الى التغيير الذي سيصيب جهاز الانتاج مما يترتب عليه زيادة ميلهم الى التخزين فيقل حجم السلع المعروضة ويزداد الضغط على الأسعار .

٥ – عند الاستعداد للحرب يصبح لامفر من الحد من الميل الى الاستهلاك . ولا يكفي في هذه الحالة استخدام نظام البطاقات ، بل يكون الاتجاه نحو خفض القوة الشرائية بمختلف الوسائل . المشكلة

في كل الاحوال هي زيادة الانتاج وامتصاص جزء من القوة الشرائية .

٦ – يؤدي الحد من الاستهلاك ، وزيادة الضرائب من أجل امتصاص القوة الشرائية ، إلى ضعف حوافز العمل والانتاج . وهنا تظهر أهمية الجهاز السياسي لمواجهة هذه المشكلات .

٧ – تؤدي اجراءات الأمن الوقائية الى ضعف السياحة وضعف المردود المادي المنتظر منها بالتالي .

٨ – تتطلب مرحلة الاستعداد دراسة مواقف البلاد الأجنبية ، وتحديد من سيأخذ صف العدو ، مما يحتم تصفية ما قد يكون لدى بعض هذه البلاد من أرصدة حتى لا تجمّد . ويرتبط بذلك تغيير العلاقات التجارية مع مختلف البلاد مما قد يخل بميزان المدفوعات .

٩ – تتطلب ظروف الاستعداد درجة عالية من السرية في الانفاق ، وهذه تؤدي الى ضعف الرقابة ، وزيادة الميل الى الاسراف والعبث بالأموال العامة .

مشكلات مرحلة الحرب :

تؤدي حالة الحرب الى اثارة مشكلات لا مفر من مواجهتها . من هذه المشكلات :

١ – يؤدي الالتحام في الميدان الى فقدان قدر كبير من الاسلحة والطاقات المادية والقوى البشرية ، مما يتطلب ضرورة تعويضها بزيادة انتاج المعدات الحربية وسحب فئات من الانتاج المدني ، ونقل الامكانات المخصصة لهذا الانتاج . ويحل محل الفئات المجندة فئات أقل قدرة على العمل ، كالشيوخ والنساء والأطفال .

٢ – يهتم العدو في الحرب بتخريب المصانع وضرب طرق المواصلات والجسور ووسائل النقل مما يعني خفض الطاقة الانتاجية وصعوبة الحركة ، وينشأ عن ذلك اختلال التوازن بين ادوات الانتاج والأيدي العاملة ، فضلاً عن اختلال التوازن بين المناطق .

٣ – لا يقتصر اهتمام العدو على ضرب مراكز الطاقة الانتاجية ، ولكن يعمد ايضاً الى تدمير المساكن ومحطات

الانارة وخزانات المياه ، وهو في ذلك يهتم باضعاف الروح المعنوية . تؤدي مثل هذه الأحوال الى قلة المساكن وقيام صعوبات من أجل الحصول على بعض الاحتياجات الضرورية . مثل هذه الحالة تعالج باعادة النظر في نظام الاسكان ، ووضع نظام لتوزيع مواد الوقود وغيرها من المواد التي تتأثر بأعمال العدو .

٤ – تؤدي الحرب الى اضطراب النسب بين السلع المعروضة من وقت الى آخر ، وحدوث ذبذبات كبيرة في الأجور والقوى الشرائية ، ولابد هنا من وضع نظام مرن للتسعيرة يضمن قدراً من التوازن بين القوة الشرائية والسلع المعروضة .

٥ – خلال الحرب تضطرب العلاقة مع العالم الخارجي ، ويصبح من الصعب توجيه قدر أكبر من الصادرات الى الخارج فيتركز الاهتمام باستغلال الطاقات المحلية والاستعانة بالاقتراض من الخارج لتعويض الصادرات . هذا الاقتراض الخارجي يعني مواجهة مجتمع ما بعد الحرب لمشكلات كثيرة .

٦ – يحدث اثناء الحرب حالة من عدم التوازن بين الأفراد نتيجة ارتفاع دخول بعضهم من جهة وفقدان بعض الاسر للعناصر العاملة فيها ، أو تدمير مساكن بعضهم من جهة وبقاء مساكن بعضهم الآخر سليما . وهنا يتطلب الامر ضرورة توزيع الأعباء الاجتماعية بشكل يضمن – بقدر الامكان – قدراً من العدالة ، سواء عن طريق الضرائب او منح التعويضات والمعاشات ، او منح ميزات خاصة لاسر المفقودين .

مشكلات مرحلة مابعد الحرب :

اثناء الحرب يقبل الافراد الحد من أجورهم وضغط الاستهلاك ، ويتحملون عن طيب خاطر ما يحدث من ارتفاع في الأسعار او زيادة في ساعات العمل . ولكن بانتهاء الحرب يحدث تغير في مفاهيم الأفراد واسلوبهم ، وتجد الدولة نفسها في مواجهة عملية اعادة التعمير .

نذكر من مشكلات مرحلة ما بعد الحرب ما يلي :

١ – تتطلب حـالة اعادة التعمير استنفاد قدر من السلـع والخدمات في الوقت الذي يكون فيـه حجم السلع والخدمات ادنى ما يمكن، مما يؤدي الى ارتفـاع كبير في الاسعار . ولو لجأت الدولة عندئذ الى نظام التسعير او البطاقات لانتشرت السوق السوداء التي تؤذي عادة أصحاب الدخول المحدودة والمنخفضة .

٢ – تتطلب حالة اعادة التعمير استنفاد قدر كبير من العمالة ومواد البناء، مما يؤدي الى نقص الجزء المخصص لمشروعات التنمية .

٣ – نتيجة لمصاعب مرحلة ما بعد الحرب ، يلاحظ اتجاه عدد كبير من العاملين الى الهجرة للخارج ، مما يؤدي الى نقص الكفاءات اللازمة لعملية اعادة البناء، الأمر الذي يزيد متاعب التنمية .

٤ – تتطلب حالة اعادة التعمير زيادة المخصص من الانتاج المحلي للاستهلاك في الداخـل ، وزيادة الطلب على المعـدات والسلع الأجنبية . ويعني ذلـك نقص الصادرات وزيادة الواردات، وبالتالي زيادة العجز في ميزان المدفوعات .

٥ – يتبين بعد انتهاء الحرب انها قد مست المواطنين بدرجات متفاوتة اعتباطية سواء بالنسبة لثرواتهم او دخولهم ، الأمر الذي يقتضي اجراء حاسماً للتخلص من نتائج هذا الأثر .

٦ – ليس من السهل مواجهة مشكلات ما بعد الحرب الا باحداث تغيير جذري في انماط الاستهلاك من ناحية ، وفي عناصر تكاليف الانتاج من ناحية اخرى، والاعداد لذلك كله يجب أن يتم منذ اللحظة الاولى التي يبدأ فيها الاستعداد للحرب وأثناءها.

ومهما كانت مشكلات الحرب فان التغلب عليها ليس بالأمر الصعب ، مادام المجتمع مقتنعاً بعدالة الحرب ، ومادام واثقاً انه يدافع عن قيمه الاجتماعية.

تحالف الاحتكارات

ل. تاراسوف

ترجمة : هشام دجاني

في السنوات الست الأخيرة أعطت الصحافة في أمريكا اللاتينية أهمية زائدة للمقالات التي تتحدث عن برنامج التحالف من أجل التقدم (Alliances for progress). واسباب هذا واضحة للغاية مذ كان التحالف اكبر خطة امريكية للمساعدة الخارجية منذ مشروع مارشال (Marshall plan). خصص هذا المشروع لأمريكا اللاتينية التي وعدت واشنطن بانتشالها من التخلف الى التقدم، ومن المجتمع شبه الاقطاعي الى مجتمع «امريكا القرن العشرين» في غضون عقد واحد. ولقد مضت سبع سنوات، ومازال حصان واشنطن الذي يدفع امريكا اللاتينية نحو «الرخاء الاقتصادي والاجتماعي» بعيداً عن محطه.

من الطبيعي جداً ان هذا «التقدم» لا يصادف حماسة لدى دول امريكا اللاتينية، وقد ارتفعت اصوات مسموعة تقول ان التحالف من أجل التقدم قد تحول بشكل سيء واصبح يوماً بعد يوم برنامجاً للمساعدة العسكرية والمعادية للديموقراطية.

---

(١) مجلة الشؤون الدولية – عدد ١ – ١٩٦٨ – موسكو.

Tarassov - Alliance for Monopolis - International Affairs № 1, 1968

ويشير الرئيس ادواردو فري – رئيس جمهورية تشيلي – في مقالته في مجلة Foreign Affairs الى ان هذا التحالف لم يحقق اغراضه . ويتساءل الرئيس : «هل حقق التحالف أهدافه ؟ هل صان الديموقراطية وساعد في اجراء تغييرات أساسية ؟ ان الجواب سلبي مع الأسف؛ فالتحالف لم يحقق النجاح المتوقع».

وعود لم تحقق :

ولدى رئيس جمهورية التشيلي أسباب كافية لهذا التأكيد . لقد كانت أهداف حلف التقدم هذا – المعلنة في آب ١٩٦١ في ميثاق بونتا ديل ايست Punta del Este وفي اعلان شعوب امريكا «التطور الاقتصادي والاجتماعي السريع لدول امريكا اللاتينية» – تحقيق «التنوع المتوازن في البنى الاقتصادية القومية» و«التصنيع الأساسي» . وذهب مؤسسو الحلف الى أبعد من ذلك اذ وعدوا بتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية ، ومحو الجهل والفقر ، «وضمان توزيع الدخل القومي بحيث يستفيد من هم في حاجة ماسة» .

كما وعدت الولايات المتحدة بحل مشكلة الأسعار بالنسبة لصادرات امريكا اللاتينية وطلب السوق . وتعهدت بتزويد أمريكا اللاتينية بالطعام ، وبالمساعدة في تدريب المختصين الوطنيين والمساعدة في تحقيق معدلات ثابتة وعالية للنمو الاقتصادي .

ومن الواضح انها كانت اعباء خطيرة وقد طرح حلف التقدم بطريقة تجعل دول امريكا اللاتينية تعتمد على انجاز هذه الاعباء في غضون عشر سنوات . وأول الاشياء التي تعهدت بها امريكا هي توسيع مساعدتها المالية بشكل ملحوظ . وتتلقى امريكا اللاتينية الآن المساعدات السنوية التالية :

١ – ١٠١٠٠ مليون دولار من الحكومة الامريكية .

٢ – ٣٠٠ مليون دولار من الصندوق الخاص في الولايات المتحدة .

٣ - ٣٠٠ مليون دولار من المنظمة المالية الدولية .

٤ - ٣٠٠ مليون دولار من دول اوروبا الغربية واليابان .

وبالمقابل فقد تعهدت دول امريكا اللاتينية باجراء اصلاح في نظام الضرائب ، والصحة العامة ، والتربية ، والزراعة وبعض المجالات الأخرى .

لعبت مساعدة دول امريكا اللاتينية حتى عام ١٩٥١ - عندما اقر قانون الأمن المشترك وأرسيت برامج المساعدات على أساس قانوني - دوراً قليل الأهمية في السياسة الامريكية . لقد اعتبرت الاحتكارات الامريكية آنذاك ان مراكزها قوية الى درجة تكفي للاستغناء عن البحث عن وسائل خبيثة جديدة لدعمها . في ذلك الوقت كان جلّ المساعدات الامريكية - مايزيد عن ثلثيها - يذهب الى الاغراض العسكرية ، أما الباقي فكله يصرف عن طريق « معهد العلاقات مع امريكا » الذي كانت نشاطاته محدودة بدراسة الطاقة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية .

لقد سجل « قانون الأمن المشترك » بداية المساعدة لدول امريكا اللاتينية على أساس برنامج خاص . وفي عام ١٩٥٧ أسس (صندوق التنمية) من أجل المساعدة الاقتصادية طويلة الأجل لأمريكا اللاتينية والدول الأخرى .

ويبدو ان مساعدة الولايات المتحدة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية قبل حلف التقدم كانت طفيفة . فقد كانت واشنطن تعطي جاراتها في الجنوب ٧٠ مليون دولار سنوياً . فاذا أخذنا بعين الاعتبار ان دول امريكا اللاتينية يزيد عددها عن ٢٠ بلداً ، فان هذا المبلغ لايزيد عن مجرد مبلغ تافه . ثم أنشىء حلف التقدم . ووعدت الولايات المتحدة بصوت مسموع باعطاء مساعدات اكثر مما كانت تقدم . ويجب ان نشير الى أن دول أمريكا اللاتينية تلقت خلال العقد الماضي جملة مساعدات بلغت ٥٠٠ مليون

دولار من أجل الانماء الاقتصادي. وبدا كأن الولايات المتحدة قد فقدت خيوط كيس نقودها. إذ راحت صحافة أمريكا اللاتينية تتحدث عن « عصر جديد » وعن « فترة مقبلة من المساواة و الرخاء ».

بيد أن هذه الحماسة كانت سابقة لأوانها. لقد زعمت الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة أن دول امريكا اللاتينية تلقت ٦،٥٠٠ مليون دولار في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦١ و ١٩٦٦. والحق أن هذا المبلغ قد خصص، ولكن ما اعطي فعلاً هو اقل من ثلث هذا المبلغ.

لم تشجع المساعدة الامريكية القوى الانتاجية لأمريكا اللاتينية على أساس من الاستقلال الوطني. كما أنها لم تخلق اية اتجاهات من أجل تغيير اساسي في البناء الاقتصادي لهذه الدول، اذ لم تحاول تأسيس الفروع الأساسية للصناعة كفروع التعدين والهندسة والكيمياء، تلك الفروع ذات الأهمية الحيوية في النضال من أجل الاستقلال الاقتصادي والسياسي.

ولما كان معظم المساعدة الامريكية يتألف من ديون يجب أن تدفع في غضون خمس أو عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، فانها ستكون عبئاً ثقيلاً على ميزانيات هذه الدول وميزان مدفوعاتها. ففي عام ١٩٦٧ وحده كان على دول امريكا اللاتينية أن تدفع اكثر من الفي مليون دولار فوائد على القروض التي حصلت عليها من الدول الرأسمالية. ويظهر لنا أنه بقدر ما تركن دولة من دول امريكا اللاتينية الى المساعدة الامريكية تزداد ديون هذه الدولة. فمن عام ١٩٦٠ الى ١٩٦٦ تضاعفت الديون الخارجية لدول امريكا اللاتينية؛ فقد وصلت في نهاية ١٩٦٦ الى ١١،٩٠٠ مليون دولار.

ان فوائد القروض اضحت تزداد اكثر فاكثر. وفي السنوات العشر القادمة سيكون على دول امريكا اللاتينية أن تسدد الجزء الاكبر من القروض الامريكية بالاضافة الى الفوائد الضخمة المترتبة عليها. من هنا كان سيلان المساعدة الامريكية

الى الداخل ، بعد طرح المدفوعات على الأساس والفائدة ، يتناقص باستمرار .

لقد كان لـه المساعدة «الامريكية في الغالب تأثير سلبي على النمو الاقتصادي لدول امريكا اللاتينية . فمبيعات وتحويلات فائض الانتاج الزراعي الامريكي - التي بلغت ثلث مجموع المساعدة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦١ - ١٩٦٥ - هي بعيدة كل البعد عن التطوير الاقتصادي لهذه الدول ومخربة لزراعتها .

والمساعدة العسكرية هي الاخرى ضارة باقتصاد امريكا اللاتينية . فبالاضافة الى أن هذه الدول مرتبطة مع الولايات المتحدة بمعاهدات عسكرية ومساعدة عسكرية ، فانها تنفق جزءاً رئيسياً من دخلها على سباق التسلح . وقد ارتفعت النفقات العسكرية المباشرة لهذه الدول من ١٤٠٠ مليون دولار عام ١٩٦٠ الى الى ٢٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٦٦ . وقد كان ثمة زيادة حادة في الميزانيات العسكرية لدول فنزويلا ، كولومبيا ، البيرو ، الباراغواي ، البرازيل ، بوليفيا ، غواتيمالا .

تستخدم الولايات المتحدة مشترياتها من المواد الخام وسيلة للضغط على حكومات امريكا اللاتينية . فالشركات الاحتكارية تشتري المواد الخام (القصدير مثلاً) بأسعار رخيصة مشروطة في الاتفاقات العسكرية ثم تبيعها للبلدان الاخرى . وبهذه الطريقة تخفض الولايات المتحدة أسعار المواد الخام لدول امريكا اللاتينية مصعبة حل مشكلات السوق بالنسبة لهذه الدول . ان وعود حلف التقدم بقيت غير منفذة ، والمساعدة الاقتصادية الامريكية لهذه الدول لم تقدم سوى « نقطة من بحر » .

ان الارقام المثبتة في تقرير رسمي نشر عام ١٩٦٧ لتثبت فشل حلف التقدم . فوفقاً لهذا التقرير ارتفع معدل الانتاج السنوي العام للفرد بمقدار ٢٫٢ بالمئة في الفترة الواقعة بين ١٩٥٠ - ١٩٦٠ بينما كانت هذه الزيادة في الفترة الواقعة بين

١٩٦١ – ١٩٦٥ هي ١،٤ بالمئة فقط .

وفي بعض دول امريكا اللاتينية لم يحدث فقط مجرد انخفاض في معدلات النمو بل حـدث كساد اقتصادي كذلك . في البرازيل كانت معدلات النمو السنوي للفرد ٢،٧٪ في الفترة الواقعة بين ١٩٥٠ – ١٩٦٠ ، ولكن في الفترة الواقعة بين ١٩٦١ – ١٩٦٥ ، عندما طلبت البرازيل المساعدة من حلف التقدم، هبطت هذه المعدلات الى ٠،٢٪ ، وفي الارجنتين كانت الأرقام المشار اليهـا ١،١٪ ثم هبطت الى أقل من ٠،١٪ ، ويقرر واضعو التقرير بأن معدلات النمو في معظم دول امريكا اللاتينية كانت : إما سلبية (أي وجود انخفاض ملحوظ) ، أو طفيفة .

وتعكس الأرقام المثبتة في التقرير حقيقه أن معدلات النمو السنوية للفرد في الزراعة لم تزد عن ١٪ ، وفي البرازيل والارجنتين والتشيلي كانت الأرقام ٠،٧ و ٠،٨ و ٠،٤ بالمئـة على التوالي .

ومعدلات النمو الصناعي تنخفض هي الاخرى ؛ فاذا كانت معدلات النمو للانتاج الصناعي قد بلغت ٦،٤٠٪ بين ١٩٥٥ – ١٩٦٠ فانها قد انخفضت الى ٥،٥٪ بين ١٩٦٠ – ١٩٦٤ . كما هبطت حصة امريكا اللاتينية من الصادرات العالمية من ١٠،٦٪ في عام ١٩٥٠ الى ٦،٣٪ في عام ١٩٦٥ ، هذه هي النتيجة التي جلب الحلف امريكا اللاتينية اليها .

في عام ١٩٦٦ لم تلحظ اية تغييرات هامة ؛ فمعدلات النمو السنوية في الانتاج العام كانت كما يلي : الارجنتين ٢،٧٪ ، البرازيل ٢،٢٪ ، الاكوادور ٠،١٪ ، الارغواي ١،١٪ ، وفي بعض البلدان مثل فنزويلا و كولومبيا والارغواي كانت هذه المعدلات اقل من ١٪

ان البرازيل تخسر سنوياً ١،٣٠٠ مليون دولار بسبب الاستثمار الامبريالي المالي وحوالي ٧٠٠ مليون دولار نتيجة للمبادلة غير المتكافئة مع الولايات المتحدة والدول الرأسمالية المتقدمة الاخرى .

وما زالت الفجوة بين مستويات الانتاج في امريكا اللاتينية والدول المتقدمة في اتساع . ففي عام ١٩٦٠ كانت النسبة بين الانتاج العام للفرد الواحد في امريكا اللاتينية ونظيره في الولايات المتحدة هي ١ الى ٨ ، بينما بلغت هذه النسبة في عام (١٩٦١) ١ الى ١٠ .

وبينما تغنى أغنية « ابادة الفقر » الموعودة فان الوضع مازال سيئ . فمعدل الدخل السنوي بالنسبة لخمسين بالمائة من العاملين في امريكا اللاتينية هو أقل من ١٢٠ دولاراً .. وتظهر الاحصاءات الرسمية أن عدد العاطلين « المنظورين » قد ازداد من مليوني عاطل عام ١٩٦٠ الى ثلاثة ملايين عاطل في عام ١٩٦٦ . والعدد الحقيقي هو اكثر من ذلك بكثير .

من الذي يجني الارباح ؟

ان النتائج المزرية لحلف التقدم ، لا تكشف فقط عن ازمة هذا المشروع ، بل تكشف كذلك عن جوهر سياسة المساعدة الخارجية الامريكية . هناك كثير من الاحتكاريين الامريكيين الذين لا يؤمنون بأن بوسع واشنطن عن طريق هذه الاساليب أن تضعف حركة التحرر الوطني في امريكا اللاتينية . وبعضهم يعتبر هذه السياسة كنوع من اللعب بالنار . بالواقع ثمة حملة في الولايات المتحدة ضد « حلف التقدم » .

ووجهات النظر المختلفة والمتناقضة ازاء الحلف داخل الدوائر الامريكية الحاكمة هي نتيجة أن الطبقات الاحتكارية في امريكا الشمالية على درجة واحدة من الاهتمام بالاستثمار في امريكا اللاتينية . والواقع أن حفنة قليلة فقط من شركات الاحتكار العملاقة هي التي تصدر رأس المال الى امريكا اللاتينية . فمن بين ٣٠٠٠ شركة امريكية هناك حوالي ٣٠٠-٣٥٠ منها تغطي مايقارب ٥٠٪ من الاستثمارات الامريكية في المنطقة، البالغة ١١،٨٠٠ مليون دولار في عام ١٩٦٥ . وبفضل هذه الاستثمارات اصبح للاحتكارات الامريكية مراكز مسيطرة بالنسبة

لفروع الاقتصاد في عديد من دول امريكا اللاتينية . وتقدر الاستثمارات التي تديرها الاحتكارات الامريكية بعشرين بالمائة من انتاج هذه البلدان العام وبثلث صادراتها .

وسيطرة الاحتكارات الامريكية هي اكبر ما يكون في ميادين استخراج النفط والمصافي، وصناعات الطاقة والتعدين واستخراج المعادن غير الحديدية، والنقل البحري ، وشركات التأمين والمصارف . وتستخدم الشركات الامريكية الشمالية في امريكا اللاتينية حوالي ١٥٠٠ شخص. ويبلغ الربح السنوي لهذه الشركات في امريكا اللاتينية ٣٠٠٠ - ٣٥٠٠ مليون دولار وهي أرباح أكبر مما تستطيع هذه الشركات أن تجنيه في اية بقعة من العالم الرأسمالي .

وتمتص شركات روكفلر (Rockfeller) الجزء الأكبر من الثروة القومية لأمريكا اللاتينية . فثلاث من الشركات النفطية الاربع الكبرى (ستاندرد أويل أوف نيوجرسي، اتلانتيك ريفانينغ، ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا) في هذه البلاد تديرها مجموعة روكفلر ، وواحدة (هي شركة غولف أويل Gulf Oil) تديرها مجموعة (ميلون Mellons) . وفروع امريكا اللاتينية لشركة ستاندرد اويل اوف نيوجرسي(Standard oil of new Jersey) وحدها تؤمن نصف دخل هذا العالم من الاحتكار (٣٥٠ — ٤٠٠ مليون دولار في السنة) .

تملك مجموعة روكفلر ٢٣ مليون هكتار من الارض في امريكا اللاتينية . وشركة كرويل بترووليوم(Creole Petroleum) التابعة لهذه المجموعة هي اكبر شركة هناك ، وقد بلغ مجموع مبيعاتها ١٠٠٠ر١ مليون دولار في عام ١٩٦١ .

كما تملك مجموعة روكفلر ايضاً شركات صناعية ، وشركات تأمين واستثمار واتحادات تجارية . ولدى بنك تشيز مانهاتن الذي يرأسه دافيد روكفلر فروع في عديد من دول امريكا اللاتينية، ويعمل

هـــذا المصرف عن طريق « مصارف وطنية » مثـــل (بنكولار برازيليرو Banco lar Brasileiro) في البرازيـــل و(بنكوكونتيتال Banco Continental) في البيرو و(بنكومر كنتيلي اغريكولا Banco Mercantily Agricola) في فنزويلا. وكل هذه المصارف تتبع فعلياً مجموعة روكفلر.

حلف من أجل روكفلر:

قامت مجموعة روكفلر بدور أساسي في انشاء « حلف التقدم » . وعندما دشن الرئيس كندي مشروع الحلف قام رد فعل جدلي حوله . فبالنسبة لتلك الاحتكارات الأمريكية ذات المصالح الاقتصادية القليلة أو غير المباشرة في أمريكا اللاتينية ، كان المشروع فكرة مقبولة « لانقاذ » أمريكا اللاتينيـة من الثورة بزيادة المساعدة لها على نطاق واسع عن طريق انعاش التطور الرأسمالي وبعض الاصلاحات المحدودة . ولكن الصناعيين الأمريكيين الكبار، وأكثرهم من الولايات الشمالية ، الذين كان لهم استثمارات في أمريكا اللاتينية ، ولكنهم لم يكونوا اعضاء في الاتحادات الاحتكارية المسيطرة هناك ، وقفوا ضد الحلف بشكل صريح . كما وقفت بعض الشخصيات الرسمية البارزة في البنتاغون وفي وكالة المخابرات المركزية موقفاً مشابهاً .

أما بالنسبة لمجموعة روكفلر فقد قدمت للحلف كل دعم ممكن . وقد عبرت هذه المجموعة مع غيرها من ممثلي الاحتكارات البورجوازية الأمريكية عن هذه الأفكار منذ الخمسينيات . وكان تطور الرأسمالية في دول أمريكا اللاتينية البارزة ، والقمع السريع لحركة التحرر الوطني ، وشدة الصراع التنافسي بين دول أوروبا الغربية واليابان في أواخر الخمسينيات ، واستحالة المزيد من الاعتماد على الحكومات الدكتاتورية والمساعدة العسكرية ، من بين العوامل التي جعلت المصالح الأمريكية الضخمة تبحث عن أشكال جديدة للسيطرة على أمريكا اللاتينية . ولذا طالبت مجموعة روكفلر،

حرصاً على استثماراتها في أمريكا اللاتينية الحكومة الأمريكية باتخاذ اجراءات كفيلة بحماية المصالح الأمريكية في الخارج .

الدولار ضد امريكا اللاتينية :

تظهر التطورات الأخيرة أن « حلف التقدم » يهدف الى المحافظة على مراكز رأس المال الأمريكي وتقويتها في أمريكا اللاتينية بمزيد من الوسائل الفعالة ، خالقاً أنسب الشروط من أجل استثمارات جديدة ، ودائماً استغلال الطاقة البشرية والمصادر الطبيعية في هذه البلاد . في هذا المجال تقول المجلة المكسيكية هيرالدو مكسيكو : « من الصعب أن ندحض الحقيقة المرة ، وهي أن حلف التقدم هو وسيلة يتغلغل من خلالها رأس المال الأمريكي الى داخل أمريكا اللاتينية » .

تسعى واشنطن ، لقاء المساعدة ، الى ارغام دول أمريكا اللاتينية على الموافقة على بعض الشروط التي تسهل توسع الاحتكارات الأمريكية (وقد نجحت في هذا في عدد من الحالات) . وتتضمن هذه الشروط الغاء القيود على العملة وتقديم معدل تبادل حر للعملات الوطنية الأمر الذي يجعلها تنخفض غالباً تبعاً للتخفيضات النقدية ، وتخفيض النفقات الحكومية على التنمية الاقتصادية ، وتجميد الأجور ، وتحويل بعض المشاريع الى الرأسمال الاجنبي ، واتخاذ الاجراءات التي تسهل اخراج الأرباح الى الخارج .

ان خلق مشاريع غير بناءة للاقتصاد (طرقات ، موانىء ، شبكات اتصال ، مصادر مائية) قد أصبح وسيلة لزيادة تدفق الرأسمال الأمريكي الخاص الى أمريكا اللاتينية . ومثل هذه التعهدات تتطلب توظيفات كبيرة وتجلب أرباحاً قليلة في البداية . ولذا فان الرأسمال الحكومي الأمريكي مخصص لهذا الميدان بالدرجة الأولى . ويحتل الانفاق على المشاريع الرابحة بالنسبة للرأسمال الخاص

مكاناً هاماً في ميزانية حلف التقدم . ويكفي ان نقول إن ٧٥٪ من المبلغ الذي خصصته أمريكا للتنمية الاقتصادية في أمريكا اللاتينية في الفترة الواقعة بين ١٩٦٢ – ١٩٧٠ ستصرف على مشاريع لاتؤدي الى بناء اقتصادي infrastructure .

ان جزءاً كبيراً من المساعدة المالية الامريكية يذهب الى تسديد الديون الى المصدرين الامريكيين الشماليين . كمثال ، بين ١٩٦٢ – ١٩٦٣ تلقت البرازيل ٣٥٧ مليون دولار من المساعدة الامريكية ، دفع منها ١٦٨ مليون دولار ديوناً لشركتين أمريكيتين للنفط ، وصرف ١٠٠ مليون دولار لتغطية عجز ميزان المدفوعات والذي يعني في الواقع دفع ديون أخرى للولايات المتحدة .

وبالاضافة الى ذلك فان الحكومة الامريكية تضمن استثمارات بعض الاحتكارات العاملة في أمريكا اللاتينية من المبالغ المخصصة سنوياً لبرنامج المساعدة ضمن اطار الحلف . وفي نهاية ١٩٦٧ أخذت أكثر من الف شركة أمريكية ضمانات بلغ مجموعها ٢٧٠٠ مليون دولار ومن الطبيعي ان مجموعتي روكفلر ومورغان هي من اوائل الشركات التي تربح على حساب الخزينة .

حتى عام ١٩٥٩ ، وبالتحديد قبل ثورة كوبا ، كانت امريكا اللاتينية كعبة الاستثمارات الامريكية الخاصة . فقد كان تدفق الاستثمارات الخاصة يزداد بشكل ثابت . وجاءت ثورة كوبا الشعبية حداً فاصلاً في تاريخ المساعدة الامريكية لامريكا اللاتينية . فقد انخفض تدفق الاستثمارات الخاصة المباشرة من الولايات المتحدة بشدة . بينما زادة المساعدة الحكومية التي تهدف الى إضعاف النضال من اجل الاستقلال ، والى خلق انسب الشروط للاستثمارات الخاصة في امريكا اللاتينية . لقد استخدمت الاحتكارات الامريكية حلف التقدم رأس جسر من أجل غزو جديد وتوسع اقتصادي أبعد . في عام

١٩٦٦ شرعت الشركات الامريكية بالعمل في مشاريع تتطلب – في البرازيل وحدها – ٧٠٠ مليون دولار من التوظيفات .

لقد وضعت الدوائر الامريكية الحاكمة « حلف التقدم » على نطاق عريض كاجراء معاكس حازم ضد الثورة الكوبية . وضد الطريق غير الرأسمالي في التنمية . ان مؤسسي الحلف، على مايبدو ، لايريدون لدول أمريكا اللاتينية أن تصبح مستقلة اقتصادياً وسياسياً عن الامبريالية الامريكية ولو عن طريق رأسمالي للتنمية .

لهذا كانت النتيجة الحقيقية للسياسة الامريكية المرتكزة على «حلف التقدم» هي التعميق الحتمي للتناقضات بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية » وكذلك هزيمة مخططات الاستعمار الجديد التي يقوم على أساسها « حلف التقدم » .